المنعطف

الطبعة الاولى 2001

حنون مجيد

المنعطف

صمم الغلاف الفنان: جمال حسن

تنضيد: ايمان ناجي

"حسنا ... ان الامر ليبدو كما لو أنه من صنع الغيب، وانه، لعمري، من صنعنا نحن ... ولعلي أستطيع القول بأنه، مهما بلغ حجم ذلك الشيء الذي نحيله إلى غيرنا، فان ما نفعله نحن غالباً ما يكون أكبر بكثير ..."

هكذا يريد أن يخبرنا البدوي الذي عثر مصادفة على ضيفه القديم الملقب بالراوي، صانع الحكايات والقصص والأقاويل، يتخبط في الصحراء مشرفاً على الموت ... لقد اضطربت جوانحه وداخل قلبه الفزع، فهذا الطريق المنحرف الذي يضل فيه ليس بطريقه إليهم، وانه على رجل مثله لطريق تيه وهلاك، فان لم تفترسه الذئاب أو تلتف عليه الأفاعي قتله العطش أو امتصته الرمال، فأسرع إليه وأردفه على ظهر جواده وعاد به إلي خيمته ... أما وقد سمع منه حديثه كاملاً، بعد أن استعاد قسطاً من وعي وعافية، تأسى كثيراً وعاد فامتطى جواده كرة ثانية وانطلق به نحو النقطة التي انتهت عندها قافلة المسافرين ...بأسنانه البيض ولسانه الفصيح .. قال:

البدوي:

غب مطر ناعم تضوع عليه أريج الربيع حتى غمر الآفاق، سفت على وجوهنا ذرات رمل حسبناها أول وهلة نوعا من مناكدات عابثة لا تخلو منها طبيعة ما. لكن الأمر حينما تكرر وركدت على وجوهنا ذرات جارحة منه، طفح على سيمائنا شيء من أسى عكر في نفوسنا بهجة كل ربيع.

ولو أن الأمر انتهى عند هذا الحد، فلربما صار من اليقين أن الصحراء في موسمها هذا تنقض عهدها معنا، وأنها قد لا تريد أن تفي بما كنا نتمنى منها، أسوة بمواسم كثيرة مرّت علينا كنا فيها نستلهم أن لا يكون الربيع هذا كالصيف ذاك .

غير أن ما حدث كان شيئاً آخر .. لاشك أن بعضاً من هذه الأرض لا تقبل الربيع ولا تستجيب له، نظراً لطبيعتها الرملية الصرف. وأنها تكون على الأغلب في مثل هذا الفصل أشبه بجزر جافة أحاط بها بحر اخضر .

فما طوق نفوسنا بأسى أكبر هو أن شاهدنا عدداً من هذه الجزر قد أمست أكبر مما كانت وأشد مقاومة لأيه بادرة من بوادر الربيع ..

انها المفازات الرملية المهلكة التي نخشى أن تكون فخاخاً للمغامر من الإنسان والحيوان على حد سواء .

وعلى الرغم من أن ذلك كان كافياً لبث الهلع في نفوسنا، إلا أن ما جعل يراودني مرارا كان أدعى الى اثارة قلقي وايقاظ هواجسي. فلقد زارني ثلاث ليال متتالية كان فيها يربض أمامي صامتاً واجماً، يلفحني نور عينيه لامعاً وهاجاً، قريباً، بعيداً، يمزق الظلمة المستحكمة ويثير الريبة والخوف.

وسوى رأسه الساكن سكون حجر مكين ونور عينيه، فلم أكن أرى منه ذلك الإهاب الغامض الثقيل، وقد ذابت غبرته في سواد الليل أو غبشة الفجر، وكنت كل مرة وحيداً، لا يفصلني عنه فاصل ولا يمنعني عنه إلا ما كان يتراءى لي، أنه لحظات من التوعد الوئيد يمارسها المقتدر على خصمه الضعيف قبل المباشرة بالهجوم.

لقد لبثت صورته تتكرر في ثبات راسخ ووضوح يتجلى ليلة بعد أخرى كان من جرائها أن نهضت في الليلة الثالثة وهرعت إلى سلاحي اقتل به هذا الكائن الغريب الذي يزورني حقيقة وليس حلماً !

من هنا، ولما كانت صورته لا تغيب حتى ينهض الفجر من غفوته البعيدة، حسبت الأمر هاتفاً، وهو إذ يتكرر هذا التكرار ثلاث ليال من دون فكاك، فإنما ليدعوني إلى مراجعة الصحراء فنهضت إلى جوادي ابحث عن شيء لا اعرفه ولكن دعاني إليه أو ندهني نحوه هاتف ما.

اننا في الصحراء، وفي بعض من حالاتنا، وبعض من حالاتها نخترق صمتها الأزلي نجوب متاهاتها لنقف على بعض أسرارها، فهذه

الأرض الخيالية التي تخفق لجمالها الروح قبل أن ينخلع لهولها الفؤاد، تتحرك رمالها وتنشطر أرضها، وتتخلق فيها كائنات لا عد لها، حتى أننا نحن بدوها وروادها عجزنا عن حصر محتوياتها ومخلوقاتها، وهي ارض عجماء لا تعيد عليك ان أعادت، إلا أصداء صوتك، وقد تشح عليك بقطرة ماء مثلما قد تبخل عليك ببادرة فيء.

وكما في الأحلام، في اغرب الوقائع والمصادفات، عثرت على الراوي يضرب دون هدى في الصحراء، إنما كما في حالة من حالات الوهم اكتشفت أنني أمام إنسان وصديق خاص وأثير.

ولعل من المثير حقاً أن يكون الراوي رجل المدينة المتحضر والسالك إلينا طريقاً مضى على عهده به سنوات، هذا الضال المحتضر الذي لم يكن بيني وبينه سوى عدوة فرس ولا أراه.

لقد كانت الشمس تلك الساعة تضرب العين وتحيل كل ما هو قائم إلى شبح بلون الرماد.

ولولا مقدمة جسده التي نتأت فجأة بعد حركة كانت على الأرجح نوعاً من تدارك انهيار في هوة رملية، لما رأيت شبحه.

على أية حال، وأنا أعدو بجوادي نحوه كان كل همي أن أنقذ ذلك الكائن الذي يتحرك أمامي مهما كان جنسه، فلنا على بعض الحيوان رأفة، ولنا مع بعض آخر صداقة وأُلفة، ولنا مع ثالث اغتنام وصيد.

كانت الأرض تميد تحت خطواته الواهية المضطربة، وكان

وحيدا تائها، مأخوذ البصيرة زائغ النظرات . ولعله بعد ساعة من هذا سيكون في طريقه الى اليأس المطبق ليلقى بجسده على الارض، مستسلما منتظرا كل أنواع الموت.

لقد عثرنا على أشخاص يضلون، في هذه الأرض الداهية، وكانت صورهم الأخيرة تعكس عمق الفجيعة التي حلت بهم، فهناك من افترش الرمال بيسر واستسلم لقدره كما لو كان على موعد معلوم مع الموت، وهناك من وضع إصبعه بين نواجذه وعض عليه حتى كاد يقطعه وقضى.

هناك من كانت آثار قدميه تفصح عن هياج للإفلات من قدر ربما لم يكن عارفاً مدى إنطباقه عليه، لكنه ما لبث أن انصاع آخر الأمر وانكفا على وجهه.

هناك خطى مضطربة وأخرى وانية، وهنالك ليس أكثر من خطوة أو خطوتين و انتهى كل شيء إلى الاستسلام انتظارا للمكتوب المحتوم . واغلب الذين كتبت لهم النجاة او قاوموا ساعات أطول، هم أولئك الذين تذرعوا بحكمة ما فاصبحوا أقل ذعراً وهياجاً، أو أكثر صبراً وأشد صموداً، وبالتالي اعظم احتمالاً ومقاومة و أوفر حظاً.

لاشك أن الضلال في مثل هذا التيه المطلق الذي سرعان ما يتحول أمام عيني الضال من كائن وديع مستجيب إلى آخر شرس أصم، يثير في النفس أقصى حالاتها هلعاً ورعباً ويجعل التائه الحيران موزعاً بين أشد الحالات تنافراً وابتعاداً، فما بين شرق وغرب،

وشمال وجنوب تتوهج النفس تارة وتتمزق تارة أخرى، وما بين إقدام وإحجام، وإ يمان ورفض، تزوغ البصيرة وتضطرب الاتجاهات. وآخر من يشهد عليهم أجسادا تتفسخ فتذرو دقائقها الرياح، أو تتمزق ما بين مخالب وأنياب، الشمس البعيدة ذات الشأن العظيم، أو ذلك القمر الوديع معشوق الشعراء.

عرفنا الراوي ضيفاً نستأنس بجميل حديثة وحكاياته التي لا تنتهي، وتاجراً يبيعنا ما نحتاج إليه في عزلتنا من تبغ وتوابل وعطور وحرير. ولما كان رجلاً صادقاً، فلقد بادلناه الصدق وأحللناه في نفوسنا محلاً كريماً، وبتنا نترقب حلوله كل عام كما تترقب الصحراء مطر الربيع.

لقد نزع الرجل عن نفسه أهواء التجارة ورسخ فيها متع السياحة، وعلى الرغم مما كان يبدو عليه من ترف العيش ورخاء الحال، فلقد وضع نفسه فينا موضع البدوي منا، فمضى يأكل أكلنا ويشرب شرابنا ولم يتزود يوماً بطعام أو شراب غير طعامنا وشرابنا، بل كان يتبسط معنا حتى في الفراش الذي ينام عليه، وكثيراً ماقاوم بجلد يحسد عليه طبيعة حياتنا، إنما كم كثيراً ما قضى ليله مسهداً يقص علينا قصصه، أو يتابع حتى الفجر حكايات البدو التي لم يكن فيها البدوي إلاغالباً أو مغلوبا في كل الأحوال.

نعم كانت صلتنا به صلة صداقة ومعرفة، لذا فان اضطرابه في الكلام عن القافلة والمصير الذي آلت إليه، أثار في قلبي الكثير من

دواعي القلق واضطراب البال.

لقد خفق قلبي واهتزت جوارحي، وما كان علي إلا أن ابادر إلى جوادي أقصد به النقطة التي تجعل من المنعطف مكانا اكثر خطورة وأقل أمناً، ليس لانحرافها نحو التيه الصحراوي الغارق في وحشته ووحشيته فقط، وإنما لأنها النقطة التي يتضلل فيها الإنسان بين الشك واليقين، مثلما يتضلل بين الماء والسراب، ليعلق في النهاية بين الحياة والموت، والموت والحياة. إنها اللعبة الأسهل، الأكثر خطراً وخطورة معا وسديد الخطو من لم يتخذها طريقاً إلا بعد مشورة ورأي.

* * *

توقف البدوي عن الحديث ليشرب كأس ماء .. فقد بح صوته، وقام إلى شأن ... ربما ليمنح سليم ناصر فرصة استئناف الحديث، مادام الرجل هذا باشر الرحلة حتى منتصفها.

سليم ناصر

عبر زجاجة مشوشة، ترك عليها حصى الطرقات والدروب آثار صدوع وكسور امتد الطريق أمامنا.. هانحن إذن نخلف مدينتنا وراء

ظهورنا .. نترك عليها آثار فحولتنا ورجولتنا .. أما أذرعنا .. أما سيقاننا التي بترتها الحرب، فلقد دفناها في التراب.

كان النهار رائقاً .. ممتداً وفسيحاً، غسلته منذ يومين ملائكة اليوم الذي هدر فيه مطر غزير.

بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى انكسر الضوء تحت عيوننا، فدهشنا أن تتكون غيوم بهذه السرعة لتغطي بغلائلها الشمس، ولم ينصرم على الرحلة سوى ساعات كانت السماء عندها صحواً مثل الزجاج.

كان السائق آخر من لاحت عليه دهشة ما، اذ مضى قابعاً خلف مقوده، يقود عربته بجهامة وصمت .

كنا ننظر للشارع المعبد الذي وطأته عربتنا أخيراً، هبة مفاجئة بعد تلك المسافة الطويلة التي قطعناها في طريق ترابي وعر اثار في وجوهنا الكثير من الغبار والتراب.

ولما كنا مأخوذين بالظروف التي أحاطت بالرحلة، فقد كان انتقالنا إلى النقطة التي وصلناها بمثابة مؤشر إلى أن مهمتنا في طريقها المنشود، على الرغم مما ألم بنا من الآم وجراح خلفتها في نفوسنا الساعات الماضيات التي تبدت فيها شخصية السائق على اتم وجه.

وكأن السائق هذا أدرك أخيرا كيف تتراكم الغيوم من دون موعد او حساب، فقد أنحدر فجأة بعربته عن الطريق العام، وتركها تسيل حتى أرساها على نقطة من طريق ترابي يحاذيه .

وكما لو أننا نقع أول مرة على خلاء واسع بعيد الأرجاء، فلقد جمدت عيوننا على المدى الهائل الذي يحيط بنا ويحاذي موقعنا، فعرفنا؛ أنها الصحراء، وكان المساء الثقيل قد اغلق أبوابه علينا واسقط الاختيار من ايدينا، وتحقق ما كنا فكرنا فيه من أن فكرة ربما طرأت على ذهن سائقنا لينحرف بنا هذا الانحراف المفاجيء، ثم ليدعونا إلى الهبوط والمبيت هناك، فاستسلمنا أخيراً للقرار الذي كان أول نقطة خوف حقيقي أصابت نفوسنا في الصميم.

فتح الباب المحاذي لمقعده، وأرسى إحدى ساقيه وقال من وراء ظهره :

. هنا نتوقف .. وهنا سنقضي ليلنا.

وتناول مساعده الكلام :

. وغداً مبكراً نعاود سيرنا .. فمن يبتغي

الراحة والمبيت في العربة فله، والاّ فهذه

الأرض تسع الجميع.

ثم قبل أن يهبط السائق إلى الأرض، عطف رقبة غليظة نفرت عروقها ولوحتها الشمس، وسرح نظراً دفيناً غامضاً على الوجوه المستنفره وهمهم بكلام مبهم حسبه بعضنا وعداً وحسبه آخرون وعيداً.

* * *

كانت الساحة التي تجمعنا فيها قد ضاقت بانتظارنا الطويل، في الوقت الذي كانت حوائجنا فيه قد اختلطت وتداخلت بما لا يدع مجالاً لمعرفة أن الشيء الذي بين قدميك لك ام لغيرك من الركاب الآخرين .

عشرون راكباً أو يزيد .. في مساحة هي في الحقيقة شبه خلوة جعلها ساحةً للعربات الصغيرة، سواقو هذه العربات وفرضوها على ساكني الدور القريبة منها، بما كانت تفصح عنه ملامحهم الغليظة من جفوة عاملوا بها متبرعي الدفاع عن الهدوء والسكينة من أصحاب تلك الدور.

أما وقد تغيبت أو تأخرت، لسبب مجهول، تلك العربات الصغيرة محدودة عدد الركاب، فقد سعدنا بهذه المركبة التي دخلت ساحتنا فجأة، ومن حيث لا يدري أو يتوقع أحد، والتي ستضمنا جميعاً . فكرنا . وتخلق نوعاً من التآلف بيننا، بعد أن كنا مطوقين كل بمصلحته الخاصة ورغبته المغلقة في أن يصل قبل غيره ((سرمارا)) المدينة المبتغاة.

قبل أن تنطلق بنا الانطلاقة اليسيرة المعهودة من عربة، أية عربة، ارتجت عربتنا في حركة هوجاء، حسبها بعضنا مقصودة أو متهورة اضطربت عليها أجسادنا، وتولد فينا منذ اللحظة الأولى شيء من قلق أصاب نفوسنا بعسرة ما. وبينما تسلقت جسده الضخم أنظار دفينة ساخطة، انصرفت أنظار أخرى إلى متابعة مشاهد مدينتنا، وهي تتخلف عنا بشوارع مغسولة وبيوت غمرتها ألطاف بواكير الربيع.

علـى أن الطريق وهو ينسحب تحت عجلات العربـة مثل لسان طويـل، والعربــة وهــي تضــم، لســعتها، أحمالنــا وتســتوعب أجســادنا وطموحاتنـا، تتغسل نفوسنا مما علق بها من رجل بدا منذ اللحظات الأولى ذا نزعة مشاكسة وغريب الأطوار.

لاشك ان آلاما بدأت تنسج خيوطها على وجوهنا جراء مغادرتنا مدينتنا والتوجه إلى مدينة بعيدة مثل ((سرمارا))، بيد أننا لم نكن ندري كم كنا ظالمين وجاحدين حين حسبنا مدينتنا هذه كابوساً علينا أن نغادره من دون نظرة وداع، ولعلنا كنا اكثر من حالمين حين ظننا أننا سنصل مدينـة سعادتنا بكل يسر وبلا عناء، بل لم نكن نعلم أن السفر إلـى ((سرمارا)) أشبه بسفر إلى حلم مستحيل.

كنا كلما تردد اسم ((سرمارا)) طرنا إليها مسحورين مشوقين، اذ كانـت لاتـزال تلـبس فـي نفوسـنا ثوبهـا الأسـطوري وتعـيش أجواءالليـالي الملونـة، يتنقل أهلها المترفون على بسط من حرير، ويتهامسون بأجمل القصص وأحلى الكلام.

نعم.. كانت ((سرمارا)) حلم كل قاص ودان، لذا فان السائق حين اقتحم علينا لحظة يأسنا فـي صورة لم تكن محسوبة منا، دغدغ آمالنا وعزز في نفوسنا ذلك الخيط اللامرئي من الأمل الذي كلما رجحت كفة الشك فيه، أنشدّ ليوقظ كفة اليقين، وهكذا غدا كل شيء يهدهد فينا لذة السفر ومتعة الترحال، فضلاً عما كنا ننشد من طموح.

حين مال جاري نحوي يقول؛ ترى انصل مدينة الاحلام، اذن أي حلم جميل؟ تلاشت صورة النهر ولم يبق منها سوى أطياف، كما لو في خيال، لزوارق هائمة فيه وأخرى تمخره ناقلة الناس من ضفة إلى اخرى، بعد أن غص بهم الجسر الكبير، وصيادين ينشرون شباكهم سواء عادت بسمك أم عادت بمحار، ونسوة من قرية صغيرة محاذية تجمعن عند شاطئه يغترفن الماء، أو يغسلن بعض أوان وملابس تحت سماء صافية ونهار جميل.

لقد غادرنا آخر حدود المدينة القائمة، وبدأت رحلة الأرض الخلاء والمدن الصغيرة والحقول البعيدة المتناثرة

وعلى الرغم من نفحات باردة تسربت إلينا من نوافذ مفتوحة، فقد كنا نشعر ببعض الدفء يحققه لنا ولو بطريق الوهم، صوت العربة المدوي يعلن عن استمرارنا في الطريق وأن عربتنا بخير، وقد قطعت ما قطعت من طريق وعر لم تبلغه خطة التعبيد الحديث بعد . قلت :

. ستصل. إما اذا لم يتحقق ذلك فسيكون النهر،

آخررؤيا جميلة تمتعت بها عيناك.

ثم لما تساءل ؛ عفواً ؟ واقترب مني تساءلت أنا الآخر إن كان حسب ذلك نذير شؤم أنكرته نفسه وصدقته اذناه، فقلت :

. ستصل سرمارا .. هناك ستجد فنادقها منتشرة

في كل مكان .. أبوابها مشرعة للطارئ والغريب .

لا تحفل بهوية أحد، ولا تسأل عن جنس أو لون،

يتواصل فيها الليل بالنهار، وسيان أن تكون غريباً
أو إبناً مادمت تملك قلبها بعمل مثمر وقلب نظيف .
قال بهيئة من يودع سره صدر غيره :
. أتراه جديراً بهذه المهمة وهذا الطريق ؟.
وأشر برأسه نحو السائق.
. لا أدري .. ولكن أين البديل ؟
أردفت بعد لحظات باردة من الصمت :
. لم تكن لدينا فرصة للاختيار .. ثم ها نحن
نركب عربة بعجلات تدور، وسرمارا في الطريق .

سكت في الوقت الذي اختلجت فيه عضلات فمه الحليق، وارتبكت نظراته، ولمّا كانت عيناه الواسعتان ذكرتاني بعيني صديق، فقد استجبت له ووددت أن نتواصل الحديث، وقررت أن أصطفيه وامنحه صداقة تعزز وفائي لذكرى ذلك الصديق الحميم. انتبهت، وأنا أعاود الكرة بعد الكرة في النظر إلى عينيه، استذكارا لنظرة ذاك إلى أن ثمة كلاماً آخر يلوح في مدى عينيه يحاول أن يخفيه فأضفت :

. ما الذي يدعوك للقلق من رجل لم تعرفه
ولم تجرب السفر معه من قبل ؟
لمعت نظراته على شيء اشبه بدموع خفية امتلأت بها عيناه:
. صمته الثقيل، وقيادته العربة، وأشياء
اخرى قد لا تراها كل عين.

لم يكن صمته خافياً علي، فقد رابني منه هذا الصمت المطبق، حتى مساعده لم يكلم أحدا منا، وهو يتجول بيننا يجمع أجور السفر بنظرة جامدة ويد عجفاء.

. ما تقوله صحيح، ولكن ما الذي ترجوه
من رجل مثله، غير الوصول بنا إلى
المكان الذي نريد؟

كنت اصدر كلامي بما يناقض حقيقة مشاعري، كنت اشعر بلوعة جاري، وأنه على كلام آخر، يناقض الرغبة العمياء التي سكنت كلاً منا قد يفقد سعادته، أو في الأقل سعادة الطريق التي يتمناها أي مسافر قبل أن يصل هدفه .ولما بدأت اتلمس اضطرام جوارحه وجموح رغبته، سألته :

. أتهيأ لك أن زرت ((سرمارا)) من قبل ؟
. كلا : بل سمعت بها، وحلمت بها، وتحرقت شوقاً إليها
.. سرمارا العوض عن كل ما فقدت أو خسرت أو لم يتحقق.

عطفت بصري نحوه، فراعني أن يكون لهذا الذي سوف اعرف اسمه فيما بعد، وكدت أطلقه عليه، شبهاً بصديقي ذاك بصورة لا تصدق ويحمل في الوقت عينه اسمه ايضا. وهكذا كان طالب هذا يحمل اسم صديقي طالب ذاك وليس بينهما من فرق سوى أن ذلك أكلته حرب،بينما لم تضرس من هذا سوى ذراعه اليمنى حرب.

أمـا الصـورة فهـي ذاتهـا .. العينـان المـدورتان، والسـمنة المفرطـة والطول المتوسط، والدموع الغريبة التي لا تريد أن تجف لئلا تفقد العينـان الفاتنتـان تلألأهمـا المثيـر. بيد أنـه اذا كـان ثمـة مـن شـيء لـم أعرفـه فـي جـاري هـذا مطابقـاً أو مغـايراً لمـا عنـد ذاك، فهـو الضـحكة الدافقـة التـي كانت تنز من الأعماق واهتزاز جسده السمين عليها.

حقاً ما كـان شـيء يستطيع أن ينسيني ذلك الصديق الأثير، أما وقد حل جواري هذا الذي تكاد جلّ صفاته تنطبق عليه، فقد شعرت أننـي معـه، أو هـو معـي فـي الرحلـة ذي نحـو مدينـة المهرجانـات كمـا كـان يسميها. كـان هـو الآخـر حلـم ((بسرمارا))، ولعلهـا لـم تكـن تمثـل لديـه غير فاطمة ابنة عمه التي حدثني عنها وتغزل بجمالها :

. أنظر إلى صورتها .. ألا ترى أنها تشبه امرأة

من خيال، صورّها الفنان الأعظم فأبدع وأجاد ؟

كان يطلق كلامه حماسياً متأججاً، ولا يريني من صـورتها سوى ذلك الوجه الجميل، المترع بنظرة متطامنـة سمحاء، ثم انتهـى بموتـه كل شيء.

. وما الذي فقدت او لم يتحقق ؟

أطلق آهة عميقة وسكت .. ثم كمن يعبر عن ندم عما بدر منه من فعل أو كلام أجاب :

. يبدو لي أن لا أحلام ولا أماني

الاّ مع سلامة الجسد.

غضّ من بصره وأطبق شفتيه حتى حسبت أنه لن يعاود الكلام بعد..

ألقيت نظرة على جسده الممتلئ متحاشياً التركيز على ذراعه اليمنى التي بترت وشددت النظر في عينيه المسبلتين، وكنت أحس أن دموعاً تكاد تطفر منهما، فقلت مدارياً قبل أن اعلم أنه أوكل لجسده مهمة ما:

. لا جسد إلا مع إرادة وأحلام وآمال، إذ ما قيمة الجسد يدور في فراغ ؟

لم يتكلم .. فلربما أدرك أن اللعب بالألفاظ كذب صريح .. رفع بصره إلى الأعلى ورحل مع الطريق .. الأعمدة التي تتراجع إلى الوراء والحقول الصغيرة التي لا تشكل على أرضها الا كما تشكل رسيمات خضر على ورقة كبيرة بيضاء .. المدن المتباعدة التي كلما اكتشفت فيها حياة تدب على أرضها عاودتك الأماني أن تكون هناك؛ تستطلع في الأقل ذلك العالم المجهول الذي تتشكل منه أو عليه حياة أولئك الناس.

على غير توقع، وكان قد مضى على تجاوزنا آخر حدود مدينتنا ساعة او يزيد، انحرفت العربة نحو اليمين انحرافا شديداً، متفادية شيئاً لم تستطع أن تتفاداه تماماً، فعرفنا أن قافلة من الأبقار التي ظهرت في الشارع أفقدت السائق وهو في سرعته الجنونية قدرة التحكم بعربته، فأطاح ببقرة تركها وسط الشارع تصارع موتها قبل أن يهرع صاحبها الينا بعصا طويلة ثم إليها بسكين.

على طريق طويل مضت الحادثة .. لم يتخلف عنها إلا نظرات مسعورة ظل القروي يلاحقنا بها، وإلاّ ضحك مهموس يتأجج كل لحظة بين السائق ومساعده ليوحي لنا مرة بعد مرة، بأن الأشياء التي تدور على مثل هذا الطريق غالباً ما تحتكم إلى ضمير الفرد وليس إلى حكمة أو قانون، ولربما كان هذا واحداً من الدروس التي استقرت في صدورنا عن شخصية سائق عربتنا ومساعده.

لم تتوقف العربة على الرغم مما سادنا من ارتباك واضطراب، إنما سدرت مجنونة هادرة.

لم يعبر أحد علناً عن اعتراض غير ما كان يسفّ على الوجوه من أسف صامت على البقرة المصروعة، وصاحبها الخسران، بل لم يعر أحد الموضوع كبير اهتمام أمام معجزة نجاة عربتنا من انقلاب محقق، وحياتنا من موت.

كانت العربة وهي في سرعتها المسعورة ودويها المقيت، أشبه بالدوامة المغلقة .. لذلك اختلط علينا التفكير في ما يمكن أن يفعل أحدنا لو عرضت له مثل هذه الحادثة وعلى طريق مثل هذا الطريق، غير أن ما أمضّ نفوسنا كثيراً، أن يعقب الحادثة المؤسفة ضحك كنا نزداد به ضيقاً وكأنه يدور علينا .. ولعله كذلك.

قطع صاحبي صمته، همس باذني، وكنت قد ابتعدت بخيالي عنه نحو العربات التي سبق أن وصلت سرمارا وألقت بركابها هناك.

.كادت عربتنا تنقلب .

ثم أنه ومن بين اختلاجات عضلات وجهه التي جسدت ارتباك هيكله حاول أن يصرخ بوجه السائق، كدت تقتلنا، بيد أنه كظم غيظه ولبثت اختلاجاته تتموج تموجاً ملوناً أدركت منها مقدار كرهه نماذج من هذا النوع، ولربما بعد التجربة التي فقد فيها ذراعه لاسيما بعد أن جسّد السائق للجميع، بأن القوة الجسدية، قد تكون في ظرف مثل هذا، مقياس كل شيء.

ثانية ذكرني هذا بصديقي الراحل وبمقدار رعبه من الأشياء التي تلحق الأذى بالإنسان.

ولأننا جاران لم يعرف أحدنا اسم الاخر، الا على حدس كنت فيه هنا على صواب، فقد التزمت الصمت، في الوقت الذي عاودتني الرغبة فيه، أن لا يدخل هذا في خصام مع السائق يعكر ساعات مقبلة لا أحد يدري ان كانت ستقصر أم سوف تطول.

عاد جاري إلى الصمت وشيئاً فشيئًا عادت الطلاقة إلى محياه، وطفق يتابع الجانب الأيمن من الطريق. وعلى الجانب الآخر كانت ثمة بيوت طينية متناثرة، تبدو وهي في البعد القريب بيوتاً سعيدة متطامنة، لا يزحم خلواتها عارض، بل هي على صمتها وسكونها المطبقين تحيل للناظر إلى صور البيوت المعافاة المكتنزة بذاتها الراغبة عن صحبة أحد.

من خلفنا، ارتفع صوت خفتت عليه درجة الجلبة التي سادت جو العربة بعد حادثة البقرة، يدعو السائق إلى تخفيف سرعته تجنباً لما قد يعترض طريقه من مفاجآت قادمة.

إنتظر الجميع رد السائق، ثم ركنوا إلى السلام بعد أن علموا أن السرعة التي ازدادت كانت هي الرد عليه.

كان ذهني يختزن الأشياء، ويضع لكل شيء حساباً ربما لم يكن يلوح لذهن آخر أو بالدرجة نفسها . إذ منذ نعومة أظفاري مقت الرجل العنيف والرجل الهازل والآخر الجاف، كما كرهت بأوسع معنى للكلمة أولئك الذين ينظرون للآخرين من خلف أكتافهم مهما كان نوعهم، ومن هنا تراكمت في نفسي أشجان ونتوءات واعتراضات، منذ اهتزاز أجسادنا على حركة العربة غير المحسوبة، اول مسيرتها، وحتى الرد على ملاحظة الراكب الأخيرة بسرعة اشد جنوناً مروراً بحادثة البقرة.

لقد حمّل ذهني الذي ابتلى بهذه الحساسية المفرطة، قائد عربتنا الكثير من الأشياء التي قام بها، حتى تلك التي لا مندوحة لأي سائق عن القيام بها، منها على سبيل المثال تلك الأفعى العظيمة التي قادها جنون ما لتلعن سباتها وتزحف نحو حتفها حينما قطعت الشارع زحفاً خاملاً فلم يجد بداً من هرسها، وكذلك ابن عرس الذي سوف يحطم عظامه بعد اذ وقف في طريقه وكان بمقدوره أن يتحاشاه لو شاء، كان الوقت مساء عندما توافق ظهوره من مكمنه يفتش في عرض الشارع عما اثار هواجسه من طعام مما يستغني عنه الركاب عادة، مع وصول

العربة نقطة محددة لم تمنحه التفكير فأخذ اخذا شديدا بالمفاجأة والشعاع الاصفر الوهاج الذي ضرب عينيه وافقده القدرة على اتخاذ أي قرار ينم عن فطنة وتدبير فأستسلم للعجلات التي شاءت ان تقضي عليه.

استخرج جاري علبة سجائر رفع بإبهامه الأيسر غطاءها، وعالج بفمه سحب سيجارة ثم ما لبث أن اعتذر الي وقدم علبته :

. عفواً .. تفضل.

سحبت سيجارة وبادرت إ لى إ شعال سيجارتينا.. من خلال نظرة متأنية وهو يقدم رأسه ليقترب من عود الثقاب لاحظت دماً منتشراً على عروق عينيه.

. ما هذا ؟

. عن أي شيْ تسأل.

قلت :

. الدم المنتشر في عينيك.

استرجع أنفاسه وعاد إلى اطمئنانه.

. سيزول .. أنه احتقان يصيب عينّي كلما

تمّلكني غضب لا سبيل إلى تبديده.

صمت ..و كلما صمت ولاحظت انطباق شفتيه أُوحي اليّ بأنه لن يعود إلى الكلام مرة أخرى. ولكن بعد أن عاد إلى كلامه غبّ هنيهة قصيرة أدركت، أنها الفترة التي يحتاجها المجهد أو المتوتر أو من

بلغ به الغضب مبلغاً عظيماً لكي ينظم أفكاره أو يسترجعها بعد أن تكون اضطربت وتداخلت، لذلك جاء كلامه عميقاً يرشح منه حزن حار :

ـ لا تؤاخذني يا سيدي .. فأنا رجل نشأ في بيئه يدافع أهلها عن أنفسهم بالأيدي والسلاح، وفي بيت لم يعرف طعم الراحة .. أبي واخوتي كانوا يدافعون عن الناس قبل أنفسهم وعلى طريقة الفرسان . وكما ترى فهذه اليمنى رحلت مع الحرب وما عاد لي منها سوى الذكرى .. لن تصدق إذا قلت لك أنني منذ بداية الرحلة حتى هذه اللحظة، ضربت بها هذا السائق أكثر من مرة .

منذ أمد لم يشبع قلبي كلام مثل هذا الكلام برجولة كنت أجدها طفقت تغيب يوماً بعد يوم في مهرجان السعي خلف علاقات قوامها الربح في كل شيء. ليس ما أنعش نفسي هو هذه الصورة الظاهرة لرجولة ما، لبطولة ما، وإ نما ما كان يحمله كلامه من أن شيئاً من تلك المعاني ما يزال قائماً، وإن كان خبيئاً في النفوس.

فكرت بأنه من الخطأ الاستسلام لانطباع سريع يتأتى من معاينة الظواهر الخارجية للإنسان، وبالسرعة التي كونت فيها رأيي المسبق عنه.

ولا ادري إ ن كنت تمنيت أن تطير ذراع ما لتحل في فراغ جسده.

ومهما يكن من أمر، فلقد ظللت أتنفس حرارة كلماته، وألقي عبرها نظرة شاملة على الآخرين ممن كانوا يجلسون على المقاعد التي أمامنا؛ من ذلك الأول على اليمين مقطوع اليد اليسرى، وقد غاص في فراغها كتف جاره الذي اخترقت رصاصة جلدة رأسه بعد أن أكلت أعالي إذنه، إلى ذلك مقطوع الساق الذي يجلس في الصف الأمامي ويهمس بإذن جاره الذي بترت أصابع كفه اليسرى وإصيب في ذراعه اليمنى إصابه هشمت عظامها واوهت حركتها، إلى ذلك الذي حاول أن يستغني عن العكازة بطرف صناعي بدائي الصنعة كانت تفضحه مشية مضطربة وعناء كلما اضطر إلى جلوس أو قيام، وإلى اولاء واولئك ممن على يمين أو يسار، وممن في وسط أو خلف، معوقي حرب مبتوري الأذرع والأصابع والسيقان، وعدا ذلك الذي انفجرت قريباً منه قنبلة أذهبت بصره، فقد كان الجميع أسوياء السمع والبصر .

قلت :

. حسبك من رجل .. ويكفي أنك على
مثل هذا الاحساس.

قال :

. أو ترى أن هؤلاء لا يملكون الاحساس نفسه ؟
. كلا .. انهم مثلي ومثلك حتماً .. بل لعل ما يفكرون
فيه الآن، أن هذا قد يقودهم إلى كارثة .
. ذلك صحيح .. هذا ما أفكر فيه ايضا.

قال و التفت جانبا تلفه غربة من يداري همًا خاصاً ..

وخيل الي أن أحداً لو اطلّ على سرعة عربتنا، وهي تقذف بالأشياء لتبادر إلى ذهنه أن من يقود هذه العربة واحد من اثنين، متهور او مجنون.

على أن ما صدر منه حتى الآن لم يكن شيئاً كبيراً قياساً على ماسوف يفعله في قابل الساعات، اذ لم يكن في ما فعله لاحقاً الاّ واحداً من أولئك الذين سمعنا من قصصهم بما يغري على الضحك الذي كالبكاء، سواء أولئك الذين سرقوا ركابهم و انتزعوا منهم اثمن ما يملكون، أم الذين باعوهم وهم غافلون أم الذين سلبوهم ثم قتلوهم في الطريق.

من خلال مرآته الطويلة المحدبة، بدا السائق يحاور بنظر داعر إحدى ثلاث نساء جميلات هن أزواج ثلاثة ركاب . وعلى الرغم من أن المرأة الأجمل لم تكن تبادله ظنونه فقد أثارت نظراته المركزة السافرة غيرة زوجها واشمئزازه، فأشار على زوجه بضرورة ادارة هيكلها نحوه منعاً لالتقاء النظرات إذا رفعت رأسها للأمام .. وهكذا فعلت المرأة وزوجها يحاورها حواراً متصلاً حتى تركها تركن رأسها على كتفه وتستسلم لنوم قسري .

لقد بدا الرجل قلقاً مرتاباً منزعجاً تكاد حركات جسده المضطربة تطير به، فلاح لنا أنه قد يبادر، اذا استمرت عينا السائق تقتنصان نظرة من زوجه، إلى إجراء ما.

استخرج الرجل من علبة ذهبية اللون سيجارة مضى يمتص دخانها في تلاحق شديد، حتى إذا نفدت سريعاً استل أخرى وجعل يسحب دخانها في وتائر بطيئة نوعاً وفي عمق شديد، ثم تجلى لنا وهو يتناول السيجارة الثالثة على الوتيرة التي تناول فيها الأوليين، أنه سريع الانفعال ضيقّ الصدر، فرجل في مثل موقفه لابد من ان يتزود بحكمة الصبر وهدوء الاعصاب، ليتلافى ماقد ينتجه غضب سريع.

غير أننا، وقد رأينا النظر الفاسق، ما ينفك يلاحق موقع المرأة أو يتحول نحو موقعي المرأتين الأخريين، ما لبثنا أن اختلقنا للرجل العذر على انفعاله الشديد، وتدخين سيجاراته الثلاث على ذلك النحو.

وعلى صورة ما كانت تقدمه السيجارة للرجل بعد أن راح يتمهل في ارتشاف الأنفاس الأخيرة من سيجارته الثالثة، استخرجت سيجارة قدمتها لجاري وتناولت أخرى، وكان من طبعي في هذا ألاّ أدخن إلاّ بعد طعام أو شراب ..

بدأت امتص دخان سيجارتي بلا لذة كافية، غير ما كانت تحققه لي من خفض يسير لما كان يدور في داخلي، وأصرف اهتمامي إلى جانبي الطريق، حيث الآكام المتناثرة في البعيد، والقرى المتنائية المجهولة المكتنزة بأسرار البعد القصي، والطريق الإسفلتي الذي لا ينى يتآكل، ولكن من دون أن ينتهي، تحت عجلات عربة هادرة وفي إطارفضاء واسع وممتد.

. أنه الفضاء القادر على امتصاص هموم العالم كله ..

قلت.

سرح نظره في البعيد ثم عاد والقاه عليّ .. أردفت :

. هنا وبملء حريتك تستطيع أن تصرخ وأن تعترض. ان تقول ماتحب ان تقول .. وتقول ما تخشى أن تقول . تقذف بما تفكر فيه أو يأتي على لسانك دون توجس أو خوف..هنا لو اجتمعت الملايين فلربما اختلفت على ما تقول،ولكنها سوف تتفق على أنها قالت ما أحبت وما كرهت.

كمن يمتحن حقيقة ما يكمن خلف كلمات الآخر، تواري عني في سكون تام، ثم عدل عني نحو الامام حيث يتربع السائق على مقعده، تطوق يداه مقوده وعيناه تتطلعان للطريق أو تغوران في المرآة.

على ميلان مفاجيء ولكنه رشيق، مال جسد جاري، فاكتشفت أننا ننعطف .. لقد انعطف السائق انعطافة مرنة وحاذقة نحو طريق ترابي جانبي انخفض بعض الانخفاض عن مستوى الشارع العام، وبدأ يتقدم بعربته باتجاه ساحة ترابية واسعة، سّويت تسوية جيدة لتستقبل العربات القادمة نحو مطعم ابيض نبت في فضائها الرحب، كان صاحبه بذل جهداً ضائعاً ليجعل منه مطعماً عصرياً، استنامت إلى جواره محطة وقود كابية.

توقفت العربة .. وتحرر الركاب من وعثاء سفر متواصل وتحللوا من هيمنة وجدوها كريهة، وتنفسوا شيئاً من حرية نسبية وهواء نقي.

ازدحم المطعم الذي طغت على أجوائه اغنية شعبية برواده الجدد الذين زاحموا رواداً آخرين كانت عرباتهم اصطفت بنظام لتشكل ما يشبه قافلة واحدة.

في الوقت الذي أنفرد فيه سائقنا بعربته، فان معرفة بدأت تلوح لنا بينه وبين آخرين من السواق، كان من جرائها ان انضم إليهم والتحم في تجمعهم في ركن خاص من المطعم وفي عزلة تامة عن سائر الركاب، وبدأ يشاركهم طعاماً خاصاً يُعنى به أصحاب المطاعم عادةً ويقدمونه مجانا للسواق عامة لشراء ذممهم.

اختلط ركاب عربتنا بالركاب الآخرين، وارتفعت جلبة الاختلاط، كما لو كأن الجميع في ساحة عيد .. أما الراكب صاحب الزوجة الأجمل فكان الوحيد ،من بيننا، الذي حظي بمائدة شغرت حديثاً فاستحوذ عليها واستأثر بها في لهفة طاغية.

لم تمض ثوان حتى كان طعام المطعم يسبق إليهما طعامهما الخاص، حين وقف على رأسيهما أحد عمال المطعم قائلاً :

. تفضلا .. لقد أوصى به إليكما سائق عربتكما.

قبل أن يبرح العامل موقعه، أزاح الرجل بعصبية بالغة ذلك الطعام ورده عليه، ثم فتح حقيبة متوسطة الحجم استخرج منها طعاماً نثره على المائدة وهو طعام على مايبدو، اعدته زوجه في البيت.

. لن نحتاج سوى الماء .. وهاكم ثمنه إن

كنتم هنا تبيعون الماء.

جلس الرجل على مقعد يواجه رواد المطعم، وجلست زوجه على مقعد آخر قبالته .. انها استراحة المحاربين، هكذا شعرا قبل ان تمتد أيديهما إلى طعام لم يجدا ميلاٌ نحوه على الرغم من أن المرأة وضعت اجمل لمسات طعام المناسبات السعيدة فيه ..

بدأ الزوجان يتناولان طعامهما على مضض، مخالفين جميع الركاب الذين كانت الانعطافة نحو المطعم شكلت لديهم سعادة ما .

كان الرجل يشعر بالحرج والامتعاض كلما رأى السائق يناور في جلسته، ويتحين أسنح الفرص لإرسال نظرة وقحة إلى جسد المرأة التي واكبت الجلوس على هيئتها الأولى، حتى إذا بدرت منه نظرة للأمام شاهده يقف على رأسيهما.

. لقد تقبلت إهانتك .. ولكن يجب أن يفهم الناس،

أننا في طريق طويل وقد نتبادل الطعام والشراب.

رد الزوج بصوت امتص نغمةَ الغضب فيه، الصخبُ الذي ملأ فضاء المطعم :

. ولكنك اسأت الاختيار .. فنحن من ذلك

النوع الذي لايحتاج احداً، سيما اذا تعلق الأمر بطعام أو شراب.

وأشر نحو حقيبته التي اكتظت بأنواع شتى من طعام مطبوخ وآخر جاف يكفي لرحلة عدة ايام .. وليجعل الطعنه في الصميم علق:

. ثم لماذا هذا الكرم الذي قد

لا يليق بنا او لا نستحقه.

. يليق.. ولعلك لاتدري كم يليق.

رد في سخرية مبطنة وأولاه ظهره تاركاً اياه يفكر في ما عسى أن تكون عليه طبيعة رجل كهذا، شاء أن يبتليه دون غيره من الركاب.

ولما كان واضحاً لرجل مثله مقدار ما يحمل الأمر من دلاله وعبء، فلقد أضحت الصورة أمامه، صورة من يواجه وحشاً جائعاً بغير سلاح.

نهض مساعد السائق وتوجه إلى العربة .. هناك جلس خلف مقودها، وانعطف بها نحو محطة البنزين، ثم عاد بها بعد فتره وجيزة وأوقفها في مكانها قبالة باب المطعم الملوث زجاجه بعبارات ملونة من مثل ((اهلا بالقادمين الكرام)) ((مطعم السعادة الحديث يرحب بكم)) ((أكلة اليوم)) ولاشيء يشير إلى نوع من الأكل لذلك اليوم وربما لاي يوم، وهكذا.. حتى انطلق بوق العربة معلنا عن انتهاء فترة تناول الطعام، والتهيؤ لركوب العربة.

نهض الركاب، وكان الآخرون من ركاب العربات الأخرى قد دخلوا عرباتهم، و انطلقت بهم في اتجاهات مختلفة مثيرة سحائب لدنة من غبار وتراب.

أخيرا نهض السائق .. تكلم قليلاً مع صاحب المطعم الذي حيّاه آخر اللقاء بود غامر وعاد يتهادى بثبات ثقيل وحل في مكانه.

اعتدل في جلسته وأحكم القبض على مقود عربته وقبل أن ينطلق نظر في مرآته يتفحص إكتمال عدد ركابه.

حرك رأسه ذات اليمين وذات الشمال، وذهل حين الفى كرسيي الزوجين شاغرين .. لم يصدق عينيه .. انما ليتأكد مما صار عاصفاً أمامه ضمن إطار مرآة مستطيلة محدبة، استدار بجسده الضخم مستقرئاً في الوجوه الذاهلة جوابًا ما.

حين ثبت لديه أن سعيه بالبحث عنهما في العربة يذهب سدىً، ضغط على بوق عربته مرات عديدة، وأوعز لمساعده في الوقت ذاته، بالتحرك للبحث عنهما سواء في المطعم ام خارجه.

رجع المساعد وهو أشد خيبة؛ مبدياً نوعاً من الاهتمام الزائد بموضوع صاحبه.

تهالك السائق على مقعده، ثم ما لبث بعدئذ أن استعاد رباطة جأشه وكأن شيئاً لم يحدث وحرك عربته بهدوء ثقيل غليظ فإذا ارتفعت عن منخفض الساحة واستوت على الشارع العام أطلق عنان جنونها.

انشغل الركاب جميعاً بموضوع هرب المرأة وزوجها، بينما استولى على مشاعر الزوجين الآخرين نوع من القلق الممض أغلق أمامهما سبل مشاركة الاخرين والاكتفاء بنتف من احاديث مقتضبة، والإنطواء على صورة ما من العزلة تحميهما مما قد يثار في وجهيهما من احتمالات الوقوع في الموضوع عينه.

ويبدو أن أحدا لم يدرك كيف عرفت القصة وكيف انتشرت مثل غمامة اكتنفت رؤوس الجميع وبوساطة من، سوى أن نظرات السائق الوقحة المحمومة التي كانت تحوم حول نقطة محددة، ولدت إحساساً في أن نظرات مثل هذه لابد من انها تراود واحدة من هذه النساء الجميلات.

كانت نظرات الرجل تقطر غراماً، من النوع الذي يتعامل به اولئك الذين لم يعرفوا الشيْ المقدس والأسرار الجميلة، وقباحة أن تغازل من طرف واحد امرأة بصحبة زوج.

بدأ السائق بعد فترة من صمت مطبق، يتحدث مع مساعده حديثاً خاصاً، ما عتم بعده أن استغرق في الضحك ذاته الذي أعقب مصرع البقرة، ثم فتح جهاز التسجيل على أغنية قديمة حزينة سادت قبل نصف قرن وعاد إلى صمته الذي هو عليه.

كرة اخرى غمر العربة هدوء البحر المضطرب، انسياقا مع الأغنية التي كانت جميلة، واستعداداً لاسترخاء مطلوب عقب فترة الغداء، وسوى شاب ينظر في ساعة يده كل مرة نهض من مقعده

يشرب الماء أو يقدمه لمحتاج، فلم يكن هناك من يتحرك.

بيد أن ما كان كذلك لم يكن في واقع الأمر الاّ سطحاً كاذباً يخفي تحت شفافيته عمقاً محتدماً يمور بأكثر من سؤال . إذ ما أن انتهى زمن الأغنية وصار الهمس بين الاثنين مسموعاً حتى انطلق في فضاء سمعنا، جاري وأنا، صوت أحدهم يشاور جاره :

. لم أشاهد في حياتي رجلاً أفجر من هذا،

وأضاف منفعلاً، لا يا أخي . ليس هكذا ..

فنحن من لحم ودم .

رد الآخر وقد بدا منفعلاً هو الآخر :

. وما الجديد، وكلهم في هذا سواء ؟

بصورة غير متوقعة، وقبل أن يخبو صدى حديثه، دعا صاحبه إلى الكف عن الحديث في هذا الموضوع، معتبراً إياه موضوعاً مضى وانقضى،وافضل ما فيه، أنه مرّ بسلام، وأن الرجل صاحب المرأة كان حكيماً عاقلاً بصورة لا غبار عليها، فنجا بزوجه وبنفسه وسمعته كذلك، وإلا فمن منا يستطيع أن يفعل شيئاً آخر، في مثل هذا الظرف وفي مثل هذا المكان ؟

. اترك الموضوع واغلق الحديث فيه .. وتحدث

عنا، نحن الموضوع الذي لم ينته بعد.

قال كلماته الأخيرة وهو يعضّ على نواجذه.

ركن الآخرإلى الامتثال لراي صاحبه، وهويفتح اقصى طاقات

أذنيه ليسمع ما يهمهم به الركاب الأقربون، ليثبت لنفسه قبل جاره، أن الموضوع ما يزال طازجاً، وأنه حديث الساعة بل أن ما وصله من أحاديث كانت ذات طبيعة تساؤلية عن الكيفية التي اختفى بها الرجل وزوجه، وعما إذا كان الهرب بتدبير أحد ومن هو ؟ وفيما اذا كانا اتفقا مع سائق فرغ من طعامه مبكراً وارتحلا معه، او أنهما التجأا إلى القرية خلف المطعم واحتميا بأهلها، وهم ريفيون أشداء ذوو نخوة على الدخيل، او أن عاملاً من عمال المطعم أخفاهما هناك ريثما تغادر العربة موقعها، حتى كثرت الأقاويل والتكهنات وضاعت في تلافيفها الحقيقة المرة من دون إثبات حتى طواها ما استجد من أحداث.

ولولا ذلك الأعمى العملاق الذي يقبع اخر العربة، لما ارتفع صوت عريض يحذر السائق من طيش قيادته :

. خفض السرعة يا رجل، فهكذا لن نصل.

من بين دوي العربة، لم يعرف أحد إن كان السائق سمع الصوت ولم يرد عليه، او أنه لم يسمعه، ذلك أن العربة مضت في سرعتها فضلاً عن اضطراب تقدمها لحظات تفادي بعض مطبات الطريق، وهكذا حين وجد الأعمى كلامه ذهب أدراج الرياح، أعاد ملاحظته :

. أخي السائق.. خفف من سرعتك فأنت تغامر بحياتنا.

لم يصدر عن السائق أي رد ولم يعر الصوت أي اهتمام،

انمـا بعـد لحظـات نهـض الرجـل الآخـر مـن مقعـده وشـق طريقـه نحـو الأعمى .. وقف على رأسه وخاطبه بصوت قصد أن يكون مسموعاً من الجميع :

. السائق قدير .. وهو يعرف طريقه .. ولو أن
كل راكب ينصحه بما يراه لضاع عليه الطريق ..
اتركه وشأنه. ولسوف تصل إلى ما تريد ..
اليس ذلك ما تبتغي .. اذن كفى.

رفع الأعمى رأسه من فوق جسده العظيم، وثبت اتجاه عينيه في مستوى مـن مستويات فضـاء العربـة، ولـم ينـبس بكلمـة، ثـم إذا ظـن أن الرجل غادر موقعه نفث حسرة حارة وقال :

. على اية حال لقد فقدت بصري.

اجابـه ولـم يكـن تعـداه كثيـراً محـاولاً أن يتغافـل عـن مقصـده، ويفلسف إجابته :

. ايه .. نعم . فنحن بعينين اثنتين نرى الحقيقة
وبعين واحدة نرى نصفها .. أما بدونهما فلا
نرى شيئاً .

ثم بعد ثوان :

. وهكذا فان هذا الأخير يكون أسلط الجميع .

ثانيـة رفـع الأعمـى رأسـه نحـو الصـوت ومـد يـده باتجـاه الفضـاء محاولاً الامساك بجزء من جسد مخاطبـه، لكنـه كمن يؤخذ بغلبـة الآخر،

مكث يؤرجح رأسه للأعلى والأسفل، متطامناً في الظاهر مع قول الرجل وفي السر مع مأساته.. لكن جاري الذي تنبه قبل غيره إلى أننا دخلنا مأزقا مع السائق ومساعده، ما لبث أن نهض منفعلاً وصاح وهو يؤشر نحو الأشياء المتطايرة إلى الوراء:

. ايها السائق .. لماذا السرعة الجنونية هذه ..
انظر إلى جانبيك وتبين شيئاً من هناك .. ثم أن
هذا الطريق لابد أن يكون خطراً في مناطق خاصة .

رد المساعد بروح تعليمية هذه المرة :

. وأنت الآخر تعلمنا الطريق .. لقد سلكنا
طرقاً شتى، كنا عليها اكفأ الفرسان .. ثم
هل سبق لك أن سلكت هذا الطريق ؟

. كلا .. ولكنه لا يختلف عن الطرق
التي على جانبيها مزارع وحقول .

. آه .. نعم .. هذه اشياء نحفظها عن ظهر
قلب، ولا تنس ان الشارع هذا جاف الآن،
وسائقنا قدير فاجعل ثقتك به كبيرة واعتمد
عليه.

اسقط بيد جاري .. فما الذي بميسوره أن يقول بعد، وما الذي يمكن أن يقوله الآخرون ؟ لكنه بعد أن عاد وجلس تنبأت باختلاج فمه واضطرام جسده واحتقان عينيه .. وهكذا زم شفتيه ودمدم

قليلاً وشاع اللون الأحمر في عروق عينيه .

مضت العربة في سرعتها، صماء مدوية لا تعبأ بالشريط الأسود الذي كلما قطعته نهض أمامها مثل مارد عنيد،ومضى السائق قابضاً على زمام مقوده بلا إ نتباه ظاهري لما جرى بين مساعده والركاب، حتى اذا انصرمت ساعة أخرى أخلى مكانه لمساعده واحتل موقعه.

حين نهض من مقعده بدت قامته جلية على حقيقتها ؛ قامة ممدودة للأعلى مثل نخلة ملفوفة بامعان تثير الهيبة والرعب، يغلفها الصمت الدؤوب بظلال تثقل النفس، يتقدمها للأمام أنف شامخ يميل قليلاً إلى الطول، لكنه يغذي الوجه ببعض ملاحة تتعارض مع صورة العينين الذئبيتين.

ومهما يكن من أمر، فقد داهمنا شعور خاطئ حين أخذ الرجلان كل مكان الآخر في تناوب عمل، وغمرنا فرح سريع بهذا التغير المفاجئ بعد ساعات شاقة من طريق طويل وقيادة مجنونة، إذْ ما أن حل الاخر أمام المقود حتى أعلن عن الصورة الأخرى لصاحبه في قيادة مغامرة كاد الظهور المفاجيء لحفرة في الشارع أو الوحل الذي نقلته أظلاف الدواب عند عبورها الطريق، يؤدي إلى قلب العربة، وغالباً ما أدى إلى استياء الركاب.

وكم كثيراً ما جنبنا الطريق الترابي المحاذي للشارع العام، ما يؤدي إليه انحراف شديد.

كانت الخيبة أشد كلما رسخ صمت هذا الثاني وطرشة إزاء بعض التأوهات ومظاهر الخوف والشعور بالصدمة التي كان بعض الركاب يبديها ولاسيما المرأتان . ولعل ما جعل الصورة واحدة، هو التآزر الخفي والعلني بين الرجلين ..فاذا كان الأول متطامناً مع الثاني كان هذا اشد تطامناً مع مجمل أفعال الأول، في صور تتناوب علينا تناوب صور الشيطان.

من بعيد تراءت على جانب من الطريق نقطة صغيرة جعلت تكبر وتلوح عليها الحركة والحياة كلما دنونا منها اودنت منا، فإذا ظهرت على حقيقتها او قبل ذلك بقليل أشار السائق على مساعده أن يخفض من سرعته، ثم رويداً رويداً توقفت العربة أمام رجل غريب لم يعرف أحد منا من أي ارض نبت وإلى أي ارض يريد.

فتح السائق الباب وترك الرجل يدخل وعلى وجهه اطمئنان الصديق، فما أن استقام جسده حتى سلم على الجميع، ثم انصرف إلى السائق وصافحه بحرارة دلت على معرفة سابقة .

ترك السائق مقعد مساعده للغريب واخذ مكانه على مقعده، فيما تنحى المساعد نحو الفسحة الضيقة أمام الباب واستقر هناك.

قبل أن يتحرك السائق بعربته ولا تزال ذيول السلام قائمة بين الاثنين مدّ الرجل يده ليستخرج شيئاً من جيبه .. طوى السائق يده في هدوء محبب وأعادها إلى مكانها، لكن أحدا لا يدري كم كان ندم الرجل حين حاول أن يعيد الكرة، اذ فاجأته يد السائق القوية فطوت يده بقوة،

وإن كانـت صـامته، الا أنهـا كانـت كافيـه لتجعلـه يعـوص مثـل كلـب صغير.

أثار المنظر هذا اهتمام الركاب .. اذ في الوقت الذي أعلن فيه اهتماماً بضيفه، أبدى في الوقت عينه قوة مؤلمة عند طي يده في المرة الثانية، وبالصورة التي رأيناه فيها . اما معرفته برجل انشقت عنه ارض لا قريـة عليهـا ولا بيـت، فلقـد ظـل سـراً فجـر كـوامن شـكوكنا. علـى أن ماحدث لاحقاً كشف عن بعض خيوط العلاقة بين الرجلين، اذ ما لبث السائق أن استخرج من تحت قميصه الثقيل مسدساً وعرضه على الرجل. ولما لم يرق المسدس لهذا الأخير، او لم يتفقا على شئ محدد بشأنه، تراخت سرعة العربة ولم تكن قطعت شوطاً بعيداً، ثم توقفت تماماً عند حافة الطريق.

هـبط الـرجلان وقصـدا أرضـا ترابيـة تجـولا عليهـا، وهنـاك جـرب الغريـب مسدسـاً كـان يحملـه، اطلـق منـه رصاصـتين، ثـم انفـردا بحـديث هامس تخلله تجوال طويل ..

هناك ودع السائق ضيفه الطارىء، وأوقف حركة يده التي وشت بـالعودة إلـى مـا كانـت حاولـت تجربتـه، متنـازلاً تنـازلاً" حـاداً عمـا يـوحي بعربون أو دين او حساب قديم، وعاد إلى عربته وامسك بمقوده، تاركاً مسدسه الجديد ظاهراً للعيان، محاطاً باكثر من سر واكثر من سؤال.

إذا كان جسد الرجل العملاق وصمته المهيب واغترابه عن

الاخـرين، فضـلاً عمـا طـرأ اثنـاء السـاعات الماضـيات، ولـد قلقـاً فـي النفوس، فان مسدساً بهذا الحجم مركوناً في نقطة تحت الأنظار عزز بؤر الرهبة والخوف وفسح في المجال سبيلاً إلى حذر مطلوب.

بدأت الشمس تجنح للمغيب، وبدا الشارع الاسود الطويل اكثر وحشـة وأشـد رهبـة، وجميلاً يثيـر الاخـتلاط . ففضـلاً عـن خيـوط ظليلـة كونتها تلال رملية هزيلة تناثرت على جانبيه، وانبثاق أجمات شجر على تـرع عليـه كانـت صـفحات مياههـا تترقـرق مثـل مرايـا لامعـة، فقـد كنـا وحيدين.

كـان الفضـاء الأسـمر المطـرز بنقطـة كبيـرة حمـراء ملتهبـة يثيـر الدهشة التي تخلب اللب، ولم يكن شيئا عابراً رحيل النهار .. كان اشبه بصديق حميم يرحل فجأة، تاركاً أشياءه الجميلة الخاصة تدور بين اعيننا من دون نظام.

لقد تركنا وراءنا عدداً كبيراً من العربات، ولم يعد امامنا او خلفنا سوى طريـق يتلاشـى وآخـر ينـهض، وسـماء لـم تعـد صـافية اذ تخللتهـا بعض غويمات ملونات أنبثثن في ارجائها الواسعة مثل خراف في حقل فسيح.

وكما لو أن الأمر يجري على منوال لادخل لاحد فيه، او كما لو أنـه قـدر مرسـوم، مضـت العربـة تقطـع طريقهـا، ومضـى السـائق ممسـكاً بزمام مقوده، تحرسه عينا مساعد يقظ، وتتربص به عيون
ركاب متعبين.

من وسط العربة ادرك الراوي، وهو رجل سليم الجسد سديد الرأي فصيح اللسأن، ملامح اضطراب تجلت على سير العربة، فاطلق صوته :

. اخي السائق احترس من نتائج

قيادتك فأنت كما يبدو نعسان.

انتبه السائق على كلام الراوي، ولكنه لم يأبه به او يأخذ بنصيحته،واستمر في الإحاطة بمقود عربته في هيئة اراد لها أن تعبر عن اليقظة والكمال.

كان هذا هو الكلام الوحيد الذي سمعته من الراوي خارجاً عن إرادته، لذا فقد التزم صمتاً زينته بسمة بيضاء نظيفة انفرجت عنها شفتان رسم عليهما شاربان جميلان فيما تدلت من اسفل ذقنه لحية بدوية أنيقة غلب على سوادها الشيب.

لقد تبدت صورة هذا الرجل أشبه بصورة من عاش في مدينة لم تعرف الحرب ولم تشّبع بالغبار و البارود. وهو وان لم يكن أصلا من مدينتنا-كما تقول قصص آبائنا- الا أنه عاش جل حياته معنا، بعد أن حل مع ابيه، الموظف المنقول إلينا، طفلاً لم يكن بلغ سن المدرسة بعد. و لربما كان لدوره تاجراً هذه الشهرة التي عرفت عنه في مدينتنا. وهو في الحقيقة تاجر لا يتعامل الا مع البدو يجهزهم مرة او مرتين في السنة بما يحتاجون اليه من أقمشة وطعام وحلي وتبغ وتمور. ومن اللافت للنظر أن لا يكون مستأجرا هذه المرة سيارة خاصة تحمل أمتعته، واستعاض

عن ذلك بكرسي واحد في هذه العربة ..انه قدره ..تماما كما هو قدر الآخرين ممن شاركوا في الرحلة،والا فلماذا حلت هذه العربة ذلك الصباح الباكر دون غيرها من العربات؟

لقد كان لنشوب الحرب في مدينتنا اثر بالغ على حياتنا جميعاً، سلباً ام إيجابا، ففضلاً عن الدور التي تهدمت والأذرع والسيقان التي قطعت والأعمال التي عطلت او تعطلت، وما تلاها من هجرة وتهجير، فقد راجت بعض أشكال التجارة رواجاً منقطع النظير، تعهدها أناس ذوو نشاط محموم وكفاءة غير معهودة، اثروا من جرائها ثراءً فاحشاً، بعد أن انقطعوا تماما لعملهم هذا تاركين بعيداً عنهم، اجمل مناحي الحياة الأخرى، كالحب والموسيقى والمعرفة والجمال. لقد كانت التجارة مع البدو احدى هذه الأشكال الرائجة ومن نصيب الرجل هذا الذي قطعت الحرب عليه استمراره في وظيفته فاصبح بين عشية وضحاها سيد تخصصه التجاري.

كان استثناء من غيره.. تجسدت في شخصيته كفاءة الموظف والثقة بالنفس وطلاقة اللسان، ومعرفة أحوال الناس، وأصول التعامل السليم معهم، بما يشف للناظر اول وهلة أن الرجل ذا قد تسلم مركزه التجاري أبا عن جد تاجرين.. ولا غرو فان كان أبوه موظفاً ناجحاً، فقد كان جده، كما صرح هو، تاجراً كبيراً، حبذ لابنه الوظيفة على التجارة لمركزها المرموق آنذاك ودفعه اليها.

. مضى على رحلتنا ساعات ودخلنا في

تفاصيل كثيرة، ولم يعرف اي منا صاحبه.

مع هذه الكلمات شعرت بثقل رصاصي يضغط على جنبي.. إنه جاري الذي انصرفت عنه .. قطع حديثه ليلتقط أنفاسه، لكنني بادرت:

. اما أنت فاعرفك .. ومن الغريب أنك
تعود بعد رحلة في الموت دامت عشرة او
عشرين عاماً .. ها أنك تعود بعدها لتجلس على
كرسي إلى جواري .. أنت يا صديقي .. طالب ..

ولم يدعني اكمل .. فعلى دهشته الفيت عينيه تتلألأن بدموع صامتة، فيما كان جسده يضج بحركات منفعلة راسخة. وبين أن اعرف ان كان يبكي حقاً، او هي دموعه التي لاتنزل وتتصف بها عيناه دون عيون الاخرين، ضاع علي في دوامة فرحي ان كنت، لأنني اكتشفت اسمه بما يشبه السحر، اثرت سعادته او فجرت حزنه.. وتناول الحديث:

. أنا طالب عبد الحق.. مهندس زراعي فقد ذراعه اليمنى
في الحرب.. عاش بطالة بائسة، وها هو يقصد سرمارا..
دارة العلم والجمال.. مطمح كل نسيب وغريب.. اب
لثلاثة أطفال، أكبرهم منغولي جاء من زواج ابنة خال لي
بعد فشل في محاولة الزواج من المراة التي هربت مع
زوجها، وارجو أن يظل هذا سراً. (لم يشأ عبد الحق
أن يصرح بهذا الا هذه اللحظة التي اصبحت العلاقة بيني

وبينه علاقة مصير او هكذا كان الأمر قبل أن اعود)..
وها أنني اتركهم هناك تحت رحمة القدر بحثاً عن
عمل وعلاج.

ارسل نظرة سريعة في فضاء العربة، سقطت على جسد السائق ثم عاود كلامه:

. وهناك امي واختي ،وحيدتين، في بيت إبن خالتي
الزوج المفقود من سنين، وأنا معيلهم كذلك. الأم والأخت
والزوجة والأطفال.. بنيان كبير ينهض بمسؤليته شخص
واحد.. لقد توفي والدي قبل الحرب ومضى سعيداً.. اما
اخوتي فقد شردتهم الحياة الجديدة بما لم يكن متوقعا،
وصاروا يطاردون المدن البعيدة واحدة تلو الأخرى بحثاً
عن حياة، وما عادوا يثيرون في نفسي غير الأسى.

توقف عن الكلام.. اشاح عينيه عني مراقباً الأشباح المتهافتة على جانبي الطريق.. فلا البقرة التي ترعى بقرة.. لا الحصان المسترسل في عدو طلق حصاناً.. ولا الانسان ذلك الذي يسلك مجرى ترعة انسانا.. بل ما عاد أي شيء يحتفظ بسيمائه سوى الارض المتلاشية والسماء المدلهمة، فهذا العملاق الرابض خلف مقود مطواع، رجل مجنون.

حينما اعتدل في جلسته والتفت نحوي.. قلت:

. اما أنا فسليم ناصر.. معلم خاض الحرب مثلك. سلم من
اثارها الجسدية بواحدة من اعاجيب الموت والحياة..

تلك الأعاجيب التي تجسد لك كيف يختار الموت الأبعد وينصرف عن الأقرب.. كيف يترك الميت لا محالة ويقتحم الحي الذي لاشك في منجاته.. اما آثارها النفسية فهي كما قد لا يتجلى لك.. انني الان اقف على بركان.. فنفسي منذ الصغر حملت في دمها جرثومة الزهد بأشياء كثيرة واعترضت على أشياء اكثر، وأعلنت عن هذا كلما سنحت الفرصة للاعلان.. الخير والشر عندي متلازمان في كل زمان ومكان ولكنهما متعارضان، متناقضان تناقض النور والظلام ..ومن جدوى حياتي بل من مبرراتها،أن يكون لي من كل منهما موقف معلوم.. متزوج من امراة بدوية، رايتها تغترف الماء من نهر عليه قرية ريفية قصدتها لزيارة اقارب لي فيها.. هناك كلفت بها منذ النظرة الاولى.. قالوا أنها بدوية، اهلها قوم شداد، نزحوا من البادية حديثا لخلاف عائلي وليس من السهل أن ينجح مسعاك للزواج من بدوية، قصدت قريتهم وحيداً مفرداً، وهناك دخلت مجلسهم دخول المغامر المجنون، فاما "بلوى" وهذا هو اسمها وإما الموت.. حقاً لقد افزعتهم بعزيمتي، فكانوا اشجع من عرفت واكرم من شاهدت.. لي منها ولدان تركتهم جميعاً تحت رحمة الله وعناية امراة عجوز، امي، مأزومة بمرض القلب.. وها أنني

اهفو إلى صورهم كما لو كنت غادرتهم منذ سنين..
اكتب الشعر.. لي ديوان مطبوع منذ ثماني سنوات، ولولا الشعر لجننت.. قلت لها ذات يوم ونحن نفتش في جنون الحب.. هل عدت إلى عقلك يوماً وقلت كيف رضيت بهذا الذي لايملك الا القرطاس والقلم.. هل طوعت جنونك للبادية إلى جنون للمدينة والحضر؟

على غير عادته قدم طالب عبد الحق سيجارة لي اولاً، فمنذ اول سيجارة دخنها حتى ما قبل هذه كان اذا اراد التدخين سحب سيجارة لنفسه باسنانه ثم قدم علبته لي.. هل كنت أناجى أشواقه المحرومة.. هل هو يغالب الماً كنت اقدمه له أنا جاره في علبة حب.. هل كانت المرأة المهزومة حبه المغلق وجنونه ودموعه الخالدة. هذا الصمت الحار اليس انغلاقاً على شيء مكتوم؟

.كانت تحب شوارع المدينة.. أطوف بها فيها ليلاً..
احتوي كفها الصغيرة بكفي وأُدفئها كلما هاجمتها ريح باردة.ما زالت وحتى لحظة وداعنا تتذكر صورة ذلك النهر.. ولعله اصبح طوطمها بعد أن هيا لها ما اعتبرته فرصة عمرها.. حبها الخالد الذي اصبحته أنا.. لا يا صديقي لا تذكرني بها.. لاتذكرني بالشوارع التي طفنا فيها قبل أن ننجب الأولاد، والحدائق التي احتمينا بظلالها، وكأننا عاشقين لم يجمعهما مكان من قبل .. أناديها باسمها

مجرداً من كل كناية او لقب، ولعل احداً لم يعرف سرالكيفية التي تعلمت فيها لهجتها وتعلمت لهجتي من دون أن يكون الحب الذي ربطنا السبب المباشر والوحيد.. انما لكي اقترب منها واذوب فيها اتقنت لغتها وكنت كلما خاطبتها باسمها تراءت لي صورة عينيها وطلعتها النبيلة يوم رايتها هناك عند النهر تغترف الماء. انها امراة من طراز "السيدة الجميلة" ولكنها كانت اكثر اتقاناً لشروط بيئتها الجديدة واشد فطنة واسرع تعلماً.. في قلبها لهفة لا تبارى للأشياء، ولكنها ليست لهفة المراة التي سرعان ما تسقط في الهوة أو الدوامة.. كلا إنما لهفة المرأة الذكية المنيعة ذات الروح الصافية والقوية معاً، الروح التي تطفو على الأشياء بهدوء لين سعيد وكما لو أنها زورق في بحر ازرق.. لقد تركتها تدخل المدينة تشتري حوائجها منها.. وكانت تشتري من دون أن تنتقي او تنتقص، ومن دون أن تدقق او تحار.. كل شيء مناسب وجميل، واذا اختارت فلأن يدها وقعت

على الشيء، ونادراً ما وقعت على خطأ.. كانت غريبة عني، ولكن حين يلتقي الغرباء، تنشأ اجمل الأشياء، او هكذا معي.

هل تضج الروح؟ واذا كان نعم، فهل يُسمع ذلك؟ لاادري.. كل ما احسسته وبصورة من الصور، أن روح طالب عبد الحق بدات تضج..

ولكن بماذا؟ ولكي افعل شيئاً اخر، استخرجت من جيبي ورقة جريدة مطوية نشرت فيها قصيدة عن محارب رفيع اتخذته اخاً لي في الانسانية، قتل في غرفة مدرسة، بعد أن جرح في غابة، وقرات:

"دمه فاض رحيقاً يا صباح الأحدِ

وذوت خطوة فجرنحوليل شاردِ".

قبل أن أكمل قراءتي التي كنت راغباً في الاستمرار فيها، حصلت جلبة، عرفت منها أن عليّ أن اتطلع للأمام..كانت العربة التي انحرفت عن الشارع العام قد ارتمت على الجانب الترابي في وضع مقلوب يفصح عن ان سرعة مجنونة كانت وراء ذلك، إذا لابد من أنها أنقلبت عدة مرات لتنتهي هناك..

ولعل من تداعيات وضعها المقلوب؛هذا الخيال الجانح الذي هيأ لي أن ارى في ذلك صورة أنثى تنتظر فحلاً لايزال يتشكل في عالم الغيب.

على الجلبة نفسها استيقظ الاعمى من سباته:

. تلك حصيلة السرعة.. ولقد جنّ بعض الناس.

رمى كلماته على هيئة من يغامر بافكار ملعونة وسكت مشفقاً على نفسه من رد فعل قد يكون عنيفاً او قبيحاً يطلقه السائق او مساعده، ثم أرخى جسده العضلي المشدود على كرسيه واستسلم لرقاد لن يأتيه.

وأنت لم تقل شيئاً حتى الآن.. الايزعجك

هذا الرجل وهذا السلوك ؟

التفت نحوي وأطلق كلامه بوجهي.. قلت:

. أنا الآن رجل أعزل..فاذن أنا رجل ضعيف.

وليس من العقل أن اواجه خصماً وأنا على مثل هذا الحال..كل ما يجري أمامي يثير في نفسي فتنة المغامرة..ولكن ماذا املك غير هذا الذي ينفرد بجيبي، وينفرد به جيبي.. قلمي!

قطع كلامي بأن القم فمي سيجارة اضطرني عليها ثم أنشأ يستخرج لنفسه واحدة أخرى كانت أنفاسه لاهثة عليها..

. وأنصحك لكي تكون قوياً ولاتخسر نفسك أن تعرف خصمك، قوته، طبيعته، سلاحه، اخلاقه، وأعظم الاعداء وأشدهم شكيمة هم الشرفاء لأنهم يستمدون من أخلاقهم مقومات القوة والجلد والنفس الطويل، أما امثال هذا فالمعركة معهم قصيرة محدودة ورابحة شرط أن تكون منتبهاً لما أنت فاعله أو مقدم عليه.

طوال فترة حديثي لم ينقطع عن الاصغاء لي، أما أنا فكنت اتوغل في نفسه، في صفاء عينيه، في اشعاعهما نوراً ودمعاً، وكانت مثل هذه الافكار، ماطبيعة هذا الرجل، ماطيبه قلبه.. مامقدار شجاعته.. ماخيبته في وضع يده، تقاطع كلماتي،وتجّمل أحاسيسي به وبالانسان والطريق والسفر إلى مدينه الاحلام، فلم يكن هذا الحميم الذي إلى جواري

رفيق سفر عابر، انما هو صديقي ذاك،صديقي الذي كنت ارى نفسي مستعدة للدخول معه في أية معركة، خاسرة كانت أم رابحة؟ وكنت اقول في فورات نفسيه تتقافز في داخلي، ربما هكذا تنشأ الصداقات العظيمة، بلا تمهيد وبلا حسابات وبمصادفات ليست على البال.

. يالك من قرين ممتع. كان ذلك ردّه على حديثي.

لقد غدت العربة المنقلبة، والرجل اللغز الذي أربك نفوسنا بظهوره المفاجيء وسره الغريب، والرجل الذي طاربزوجه نحو المجهول، والمدينة التي خلفنا على أرضها المتحركة أهلنا واحبابنا.. لقد غدا كل ذلك خلفنا وماعاد يشغلنا غير هذا الذي ينهض كل مرة ليتلاشى ثم لينهض من جديد والا هذا الذي يسد الافق بجسده الثقيل.

حينما حانت نظرة مني اليه وجدته محلقاً في المدى الابعد تشف صورته عن اعتمال داخلي صامت وقور، كذلك الذي يسبق العاصفة. على أنني أن كنت فكرت في شيء حتى الآن، فلقد كان في الكيفية التي يتعامل فيها الانسان، مع ما يعترضه في وضع كهذا، ليصل في الأخير إلى بر الامان، ففي السفر إلى المدن البعيدة غالباً ماهيأت نفسي لأجواء مريحة، وأعددتها لخلق حالات سعيدة. صحيح ان السفر إلى هذه المدينة لم يكن من قبيل السفر للسياحة والمتعة مثلما علية السفر إلى المدن الأخرى، يصطحب فيه المسافر كتاباً مصوراً يتسلى به، أو ديوان شعر صغيراً، بل هو سفر خاص يتطلب استعدادات أخرى، أقلها كلفةً

التضحية بالراحة فترة أطول وشكم النفس عن ملذات وتسليات صغيرة، وقبول ماقد يتمخض عن السفر إلى المدن النائية من مفاجآت واحداث.

مرة اخرى ترك السائق مقوده لمساعده الذي هبّ سريعا لأخذ موقعه.. وبقامته المديدة خطا خطوات ثقيلة نمّت عن خدر الجلوس الطويل، وشق طريقه بين صفوفنا نحو المقعدين الشاغرين وركن جسده عليهما مسترخياً بين يقظة ونوم يداعب أنفاسه العطر الذي خلفته المرأة في مكانها وكان لايزال يشغل حيزاً هناك.

ويخيّل اليّ الآن؛ أن اغلب الرحلات التي حققت اهدافها عبر طريق شاق وطويل، تلك التي كانت الصحبة فيها جميلة والقيادة أمينة.

واغلب الظن أن رحلتنا، كان يمكن أن تكون كذلك،لو كانت عربتنا غير هذه وسائقها غير هذا.

ان الرسائل التي كانت تردنا من قصّاد وصلوا سرمارا والاخبار الطلية الملونة التي تواترت منها وعنها لونت عيوننا ورطبت افئدتنا، حتى غدا الوصول اليها اغلى اهدافنا واعذب امانينا.

ليس من شك في أن هؤلاء الذين يربضون على كراسيهم أمامي وخلفي يمورون. ولاأدري ماعسى أن يقولوه لو فتحت صدورهم وعقولهم وأطلقت من عقالها افكارهم ورؤاهم. فهؤلاء الذين هم من مدينة ألقت عليهم لعنتها فكانوا ضحاياها وشهداءها والخاسرين فيها،هم أكثر اولئك الذين أبصروا عن بعد سرمارا ولهفوا عليها:

. لو تعلم منذ متى وأنا افكر في هذه المدينة.ان مايسحرني فيها هذا الذي اسمعه عن هوائها وحدائقها وطرق العلاج فيها..ان مايؤلمني الآن هو صدري.. النفس فيه مخنوق مؤلم كما لو دكت عظامه سنابك خيل..

. لربما كنت قبلك،وعلى الرغم من فارق السن، فلقد كنت اتوقع ماحدث..وكنت اعرف أن السفر اليها لن يكلفني ماكلفت الحرب،لكنه التقاعس والتسويف وتعليل النفس بما سوف يجود به الغد، وما إلى ذلك من اختلاقات طفولية ساذجة.

أضاف في نبرة مشحونة بالأسف:

. ولكن قل لي.. من كان منا يدرك حقيقة ماكان يخبئ له الغد؟ ألم نكن قبل ذلك كالاطفال السعداء؟

قطع الرجل عليه سبيل أحزانه وقال:

. وما الذي اعددت لسفرك هذا؟

. لاشيء سوى ايماني بأنها سوف تستوعبني مثل طفل ضال يعود إلى حضن والديه.

ضحك الآخر ضحكة فارغة خرجت مكلومة من صدره المأزوم وأعلن دعوته:

. لاياصديقي لا..لاشيء من هذا..فسرمارا

قد تكون وهماً، وقد تكون مستحيلاً، لذلك

فأنني ادعوك إلى ملازمتي لكي لا تتوه.

ارتجف جسده كما لو على النسيم البارد الذي يلعب في فضاء العربة:

. أعرف ..أعرف كل شيء وكأنني اراها،

تلوح على مدى ذلك الافق القريب.

ضحك الرجل مرةً أخرى، اذ لم يكن الافق قريباً.. لكنه قال.. فهذا الطفل الذي امامه قد لايعي مايقول:

. ان سرمارا تعني المدينة الكبيرة الواسعة، والشوارع المستقيمة الممتدة،كما لو بلا حدود، كما في الخيال، الحياة فيها آمنة سعيدة.. لايحرسها حراس ولاينام على عتبات بيوتها مشردون.. انسانها نشيط والعمل فيها قائم ليل نهار، وأجمل مافيها شرفات بيوتها المشرعة للنور والهواء.وكما تعلم فانها مدينة لاتستقيم الالعقل سليم وشجاعة نادرة.. يرتادها المرضى والاصحاء على حد سواء، فيها المستشفيات تجاور الرياض والأنهار ومن هنا كان لها هذا الذي يغريني ويغريك

ـ اعذرني ياسيدي، قالها بعد تردد، أأنت الاستاذ أحمد سعيد؟

. آه..نعم ..فأنت اذن تعرفني.

. نعم،ياسيدي .وأنت الاتتذكر تلميذك علي شريف؟

كاد يقول نعم.. ولكن لماذا؟ فمثله تمر عليه الأجيال فالاجيال ونجيب من يتذكره..أما هو فقد مسحت الحرب ذاكرته، ولم يعد يتذكر من اشيائه الا القليل.

ـ على اي حال، هانحن اصدقاء الآن، فلقد بلغت مبلغ الرجال الاشداء، ولكن ها أنني ارى أنك تخفي اصابعك المبتورة عن معلمك.. هاك تلمّس، تجد الحديد ينام بين عظامي، أما صدري فلقد حدثتك عنه.

كان الرجل هذا شاباً بترت الحرب اصابع كفه اليسرى فما يني كل لحظة يضمها في حضن كفه اليمنى او يخفيها تحت مائدة الطعام، وفي ذهنه اجراءات يفحص بها سلامة جسد محدثة،فبين أن تكون في رحلة كهذه سليماً وبين أن تكون مقطوع الاصابع أو الذراع، بون كبير.

. نعم للأسف،على الرغم من أنني تعلمت

الشجاعة منك..

. وهل احتفظت بها ام دفنتها..أم طارت مع شظايا الحديد؟

. كلا.. انها معي..في هذه الحقيبة التي تحت قدمي فلاشئ يمر دون شهادة، ودون أن يترك اثرا.. خمس اصابع يدي اليسرى، والأقرب إلى قلبي..لقد احتفظت بها.. أنها الآن اشبه بحبال قصيرة من مسد عتيق، مر عليها صيف وشتاء وصيف فجفت وتيبست، وآلت إلى عظام لاأهمية لها سوى ماتبعثه في قلبي كل مرة من حزن جديد وألم مضاعف.. وانني لأتساءل، ترى من أي منفذ أو نافذة تهرب السعادة أو تدخل، ألاترى أننا نعيش على شيْ يشبه الوهم يقصينا مرة ويدنينا أخرى،وهذه سرمارا التي اراها الآن ألا تكون نسيجاً من ذلك؟

وقف الاستاذ على اضطراب تلميذه ومحاولاته المتوجسة لاخفاء اصابعه، في الوقت الذي يعاني هو فيه وغيره من اصابات بليغة، فأولاه عناية الاب لاسيما بعد أن لمس فيه رهافة شديدة كانت تتبلور في عمق مشاعره وطراوتها وبعدها الخيالي، ولعل الألم الذي نبع فجأة من أعماقه كان بدافع التفكير في الكيفية التي يواسي بها هذا الروْح الشفاف المندفع والمتوجس معا.. تماما مثل صوته الجميل،

المنطلق والمتردد، وتماماً مثل نظرة عينيه المتألقة والحيية..

. وماذا كان عملك قبل هذه الرحلة، ياعلي؟

. غادرت الجامعة بعد أن وضعت كتبي على الرف، أدرس اللغة العربية وكان ظني أنني سأكون ضليعاً فيها..رجل بيد واحده..

. ما زلنا لم نقطع من الطريق سوى جزء يسير، اين كنت؟

انتبه طالب عبد الحق إلى كلامي،وكان لايزال مشدوداً إلى نقطته البعيدة التي ماانفك ينظر اليها.

.. اه.نعم. قال وأطرق ثم عطف:

. وما الذي لا يدعوك إلى التفكير البعيد حين لا يكون القريب الا صعباً ومفجعاً وعسير المنال؟

. نعم . قلت.ذلك صحيح.

وعلى الجانب الترابي من الشارع العام الذي صار الآن معتماً مضت العربة على مهلها تسيل، ثم على بقعة من الارض نمت عليها زهور وورود توقفت تماماً، ثم اذا تلاشى دويها المفجع وأنينها المحزون، ونهض في الاجواء صدى اسئلة واستفسارات،فتح السائق باب قمرته وأرخى احدى ساقية وقال:

. هنا سنقضي الليل .

. وغدا سنعاود الرحلة.

أضاف الرجل الآخر، وتبع صاحبه..كما يتبع الكلب سيده.

*   *   *

أمسينا على حافة الصحراء.. الشيء الذي سمعنا به ولم نعرف، كفايةً، حقيقته من قبل، يحيط بنا مثل الخيال، المدى الهائل المدلهم، وليس بايدينا من شواهد واقعنا السالف الا الشارع الذي انحرفنا عنه، وقد بدأ يغرق في لونه القيري.

على أننا ان كنا قبل ذلك لانرى من الأشياء غير أطيافها الهاربة، فها أننا، على ضوء خفيف ينسل من بين طبقات الغيوم، نرى بعضها بوضوح، بعض الوضوح، وقد نستطيع أن نمسك بها حتى .. فإن تك هذه نبته فتلك شجيرة، أما هنا .. تحت اقدامنا فمساحة دكناء من عشب طري يافع يغري بالراحة والاستلقاء.

اختار السائق بقعة مستوية ألقى عليها مساعده فراشاً برك عليه مثل جمل عظيم واسترخى دون اشارة أو كلام.

أما الاخرون فقد هبطوا تباعا ثم انتشروا في الارض الرحبة كتلاً منفرطة، هناك افترشوا بعض افرشة اسلموا اجسادهم عليها لاسترخاء لابد منه، او لرقاد لكنه صعب.

رفعت بصري الى السماء .. وجدتها لاتزال ملطخة بغيوم رمادية تنفذ من فراغاتها الضيقة، رقائق من اشعة باهته تثير في النفس

غبطة الايام الخوالي عند من عرف الحياة في الريف..

انها الفرصة الثانية،بعد فرصة التوقف في المطعم لاستنشاق هواء طلق، ولمس بعض جوانب الحريه وتبديد بعض الاسى الذي لحق بالنفوس.

ومهما يكن من امر هذه الفرصة، فقد نقلت مشاعري الخاصة إلىطالب عبد الحق، لماذا التوقف هنا، و لابدّ من أن تكون هناك، في نقطة قادمة، محطة للراحة والمبيت؟ لقد ساورتني الشكوك واستولى عليّ قلق ما واعلنت له عن ريبتي في سلامة المبيت في هذا العراء اللامتناهي الذي لايصلح أن يبيت فيه أناس من النوع الذي نحن عليه او فيه.

. انني لااحبذ المبيت هنا.. وأخشى ان يكون وراء ذلك شيء آخر.

. انظر اليه، كيف استسلم للنوم!

تعالت في العمق الاسود البعيد، وقد هبط الليل، اصوات ذئاب وبنات آوى وثعالب وضباع، اثارت فزع المرأتين الشابتين اللتين روعتا بفزعهما زوجيهما قبل الآخرين.

كانت الاصوات بعيدة فيها نوع من التنادي الذي قد يحدث بين الحيوانات على سبيل التخاطب لشرط بعيد عن لغة الهجوم والافتراس. الا أن اصرار المرأتين على ذعرهما وهياجهما دفع بالسائق إلى النهوض والتقدم نحو مصدر هذه الاصوات واطلاق النار.

إذا كانت هذه الاصوات ومن ثم اطلاق النار باتجاه المدى الذي افترض السائق وجود الوحوش فيه،قد منعا النوم عن بعض العيون، فان لسعات برد قادمة من عمق الصحراء قلصت النوم في عيون آخرين..غير أن كل هذا، ذاب سريعاً تحت وطأة الحاجة إلى النوم بعد سفر ساعات مجهدة فنام الجميع. وكانت أحلام من قبيل رجل يفترس ذئباً وامرأة تنام عارية على رابية، ورجل ينتزع سلاح رجل آخر.. ذئاب وثعالب عيونها لامعة تنتظر في البعيد.. كومة من أرجل صناعية وعكازات خشب وعكازات حديد تطير في الفضاء، كما قطع الغسيل، ترفّ على عيون الجميع.

في الوقت ذاته أو بعده بزمن قصير او طويل كان السائق الذي غرق في نوم ثمل ثقيل، يستشعر يداً تربت على كتفه تدعوه للاستيقاظ فالفجر يطل.

وكانت انتباهته انتباهة المترقب اليقظ الذي ينام بعين ويحرس بعين.. انتباهة هادئة وان لامستها الرغبة في مزيد من النوم..

استل سيجارة من علبة إلى جواره ومكث على رقاده يمتص دخانها متابعاً بوعي اقل يقظة واندهاشاً حركة الغيوم وبزوغ واختفاء بعض أنجم قصيّة، وسكون الكون الا من ضجيج داخلي اشبه بضجيج ماكنة جبارة تطحن صخوراً ناعمة .. وكان الرجل الآخر الذي القم فمه سيجارة متأخرة من العلبة ذاتها، يرى نفسه هو الأقل شأناً، مرتبكاً تحت هذا المدى الذي يحيطه من كل جانب، صغير الجرم، تافه

القرار ،منعطف الفؤاد لا قياس بينه وبين هذا الجرم الكبير الذي يرقد بين عينيه، قوياً هائلاً يمتلك قراره، وقادراً على الحركة فيه.

من خلال صغره الذي استشعره الآن حاداً ومؤلماً تنامى لديه الظن بأن نوم صاحبه العميق، تناسب مع جرم جسده الكبير:

. لقد نمت نوماً عميقا.. وكان شخيرك

يملأ الآفاق.

سحب السائق آخر انفاس سيجارته:

. لقد تعبت.. ساعات متواصلة الا من وقفة قصيرة.

اشعر بجسدي الان مثل ساق شجرة ميتة.

قذف بعقب سيجارته خلف ظهره.

. كنت اود مساعدتك.. لكنني اعرف غرامك.

ولم يشأ ان يكمل فقد سمعه يسلك حنجرته ليقول شيئاً، ثم اذاما اوشك ان يتابع قاطعه يقول:

. قد احتاج مساعدتك.. ولكن بعد ان ننعطف.

توقفت الحركة في جسد الرجل. لم يعد يسمع الا هدير قلبه، فقد القت كلماته ذعراً فيه، ما لبث ان توغل في حناياه، فالجم لسانه، وكانت بسمة وانية تسللت الى شفتي السائق وهو ينقل نظراً متعالياً بين اذرع وسيقان، ركنت في اماكن قريبة بعد ان خلعها أصحابها عن أجسادهم واستسلموا للنوم.

كان المساعد اول من عرف شيئاً عن قرار السائق اتخاذ

المنعطف طريقاً نحو سرمارا.

ولأنه سمع من قبل بخيبة الكثير من الذين غامروا وسلكوا هذا الطريق وممن لم يكونوا مؤهلين للخوض فيه، فقد اوجس خيفة وكان لزومه الصمت هذه المرة تعبيراًعن الرفض وليس عن الموافقة والقبول.

لوح المساعد بيده، وضم الى ذلك صوتاً جهيراً لا يتناسب مع حجم جسده، فانتبه الركاب اليه، ثم ما لبثوا ان استجابوا لندائه يدعوهم الى الاقتراب. فلم تمض دقائق حتى اكتمل عددهم في جلسة اشبه ما تكون بجلسة جنود امام معلم عسكري في ساحة تدريب. لقد انضم جميع الرجال في حلقة يخيم فوقها قلق مما دعا الى هذا النداء، او الى ما اتخذ الرجلان من قرار.

قبل ان يمر وقت كان كل شيء فيه يشي بما يعكر النفس انطلق صوت السائق يقول:

ـ لعل احداً منكم لايستطيع تقدير المسافة الى سرمارا. وما يعترض الطريق اليها من مشاكل وصعوبات جمة، لذلك سوف انعطف بكم نحو الصحراء.. نحو عمق محدد منها لنقطع، من ثم، طريقاً سهلاً يفضي بنا بعد وقت قصير الى الشارع العام من جديد. بذلك اكون قد اختصرت لكم الوقت والطريق، وجنبتكم مواجهة متاعب اعرفها ولا تعرفونها.

القى حجره الثقيل في بركة الصدور المتعبة، وانصرف الى متابعة المرأتين اللتين ابتعدتا عن مكان الإجتماع وانصرفتا الى البحث عن اشياء تخصهما في حقيبتي سفر صغيرتين ملونتين، انما حتى وهو يهم باعطاء الاشارة لمساعده للمشاركة في الحديث، فلقد مكث يلاحق شانهما كما لو أنه يعنيه.

كان الصباح جميلاً، تخللته رطوبة علقت في فضائه، ولم تكن الشمس ارتفعت، ولم تمنح اشعتها المتوارية بعد الأجساد المقرورة دفئاً ما.

في محاولة لتحطيم جدار الصمت، نهض سؤال طالب عبد الحق:

. ولماذا الصحراء؟

. الم اقل شيئاً بعد؟

. نعم..قلت.. ولكن قبلك قال من صمم ذلك الطريق.

. ما نقوله نحن هو الصحيح.. فابتداءً من هذه النقطة حتى مسافة عدة كيلومترات سيكون الطريق وعراً وصعباً.. الا ترى انه طريق قديم؟

انفض الجميع.. انفرد السائق بنفسه في نقطة ما تاركاً مساعده يتوجه نحو العربة يعالج عطلاً عارضاً الم بها ويهيؤها للانطلاق.. وفي البعيد منهما كانت الدوائر تدور، دوائر رضا ودوائر اعتراض.

. وما لنا وهذا الطريق وفيه وحشة وفيه مخاطر،

بل فيه موت؟

. وما يدريك، فلربما كان اكثر راحة على ما فيه من اختصار للمسافة واختزال للوقت؟

ان شيئاً من هذا لم يصل سمع السائق سوى صوت الأعمى وهو يؤكد عالياً:

. نعم.. ولماذا هذا الطريق؟ الصحراء شيء مهلك وخطير والخوض فيه مجازفة.. انا رجل اعمى لا يهمني ان سلكنا هذا الطريق ام ذاك، غير ما يحتمل ان يكون هذا افضل من ذاك فيما يتعلق بالمخاطر والعقبات.

لم يسمع رداً.. لكن صوته الجهير انطلق مرة اخرى:

. ذئاب و ضباع.. وقد نضطر مرة اخرى للمبيت في العراء..

رد السائق.. هذا الصوت لايكف ولسوف يلاحقه حتى يقتلع اذنيه..

. كذلك الأمر سواء.. ان كان طريقك محاطاً بالورود ام محاطاً بالأشواك، فما انتَ سوى اعمى.

أشار الى جمال الطريق، وعبر في الوقت عينه عن غيظ وكراهية لهذا الرجل المديد.

لزم الأعمى الصمت، فما جدوى الحديث مع رجل يملك قدره بيديه فيما لايملك هو نفسه قدره ولا يملك اية حيلة حياله؟

اضاف بعد اذ راى صمت الأعمى وارتعاش جسده:

. ثم مالك وسرمارا.. فان كانت هذه ترحب بهؤلاء

فما سبيلك فيها غير التشرد في الطرقات.

اشتد صمت الأعمى.. بات يرهف السمع الى شيء بعيد، يقلب على تخومه القصية ذكريات جافة ميتة، ونثار اصوات نائية، حتى اذا اشتد صمته وغاب في مجاهل ذلك العالم الذي يعرفه هو اكثر من سواه، ازاح عن نفسه كلفة التقليب، فرفع راسه للاعلى، ثم بالغ في ذلك حتى كاد عنقه يطير، وما زالت نظرته غائبة هناك، وقال:

ـأأنت غريب.. غريب إبن..؟!

دهش السائق، بل ذهل، انفرجت عيناه عن نظرتهما المخيفة المرعبة، وبات هو الآخر يستدرج ولو على كره صوراً شاحبة هاهي تترى امام عينيه مسرعة كما لو تتقاذفها ريح، لكنه رد برباطه جأش:

. نعم ..أنا هو غريب.

إذن لا شيء يموت .. ولاشيْ ينتهي وبعد هذا فهو غريب بن .. ولم يقل أنا سعيد عبد الله، مقراً بالحقيقية وظاناً انه بهذا أجهض محاولة الرجل واسقط في يده ماكان يحاول ان يحققه أو يرمي اليه.

فمنذ زمن ليس بقريب واسمه سعيد عبد الله، بعد ان غير اسمه واسم ابيه، بل كاد يقول،نعم انا غريب الذي ليس إبنا لاحد، امعانا في

الصلف وإمعاناً في المكابرة.

ولكي يرسل دلالة حقيقته، التي اعترف الآن انها خالدة ولا زالت حية،الى هذا الذي ليس الاّ أعمى كل مايمتلكة قطعة لحم صغيرة إسمها لسان، كرر: نعم، وان كنت لاتراني فإنا هو غريب. غريب بن من؟ واني لأسأل وعليك ان تجيب.

أيمكن ان يكون هو؟

هكذا كانت الاشياء تتفاعل في الداخل، بعيداً عن الانصياع للحقيقة والاقرار بالأمر.. نعم ايمكن ان يكون هو حقاً، الصبي الضخم ابن ذلك العجوز الأعمى الذي يقدر الوقت متى سالته أفضل تقدير؟ أعمى ابن أعمى، ولكن كيف .. ما سرّ عماه؟ أذن ياللأقدار السعيدة .. وأين ذلك الأعمى العجوز، أتراه مات من امد بعيد، وهاهي صورته حية يجيب فيها عن سؤال ذلك الطفل الذي كانه،كم الوقت.. الحادية عشرة وسبع دقائق .. الواحدة وعشر دقائق،الثانية عشرة والنصف تماماً، ويمضي ثابت الخطو معتدل الجسم، لايسلم من لسانه، إن عابثة، أحد. ترى كيف عرفه واستدل عليه .. صوته؟ الازال صوت الصبي الذي كنته يرن في حنجرة الرجل الذي هو أنا الان؟ كاد يعترف، هذه هي الحقائق المرة .. دائماً قوية ومكابرة، غير انه ان فكر بها فان لسانه كان أعجز عن ان يفصح عنها.

تراجعت الصور.. أنطفأ بريقها .. لم يعد أمامه الا هذا الأعمى الذي هو أغرب هؤلاء جميعاً وأكثرهم صلة به كذلك، فإذا رآه يعطف

رقبتـه ثـم مايلبـث ان يسـتدير عنـه متخـذاً طريقـه نحـو أحـد مـا ليكـون مصادفة طالب عبد الحق، انعطف هو الآخر جاعلاً طريقه نحو بقعة ترتفع قليلاً عن الأرض، يشرف من هناك على المدى القريب، ويستطلع في المدى الأبعد العمق المرعب للصحراء، وتيهها الغائب اللامتناهي، يضّج في رأسه دوي يصم الآذان وتصميم يثلج القلب.

بعد حواره مع السائق وعقب ماسمعه من حوار الأخير مع الأعمى أمسى طالب عبد الحق، محتقن العينين يستعرض في نفس محتدمة هؤلاء الذين تناثروا في الخلاء وقد لعبت برؤوسهم الأهواء والظنون فيما قد توفره لهم أو تجره عليهم الانعطافة نحو الصحراء .. كان صامتاً مختلجاً تنبئ حركاته الدقيقة عن شرود ذهني يخفي وراءه التوزع النفسي الذي قد يلّم باصحاب النفوس المرهفة لحظة المواقف الحاسمة.

أقتربت منه وكنت أوّد لو حدثني عما يجول في خاطره، ذلك انني رأيت، على هيئة الهلام الشفاف، ذلك الشيء الطافح في الخيال، الذي لايرى بالعين المجردة،الذي اسمه قدر الانسان يحوم حول رأسه ثم يستقر على كتفيه..

خشيت عليه، بل تأسيت، فهذا الرجل الأعزل الذي لايملك من يديه سوى واحدة يسرى لايستقيم بين أصابعها قلم فكيف بسلاح، قد أنيطت به مسؤوليه القبض على زمام الأمور ومواجهة المقادير.. هكذا قدرت.

. سندخل الصحراء .. وسيكون لنا معها تجربة

جديدة.. قد تكون صعبة، وقد تكون محفوفة

بالمخاطر ولكن من يدري فمن المحتمل ان يكون

الرجل على صواب

. لو كان غير هذا..

خطوت نحو الأعمى الذي ركز بجسده المتعالي على أرض معشوشبة يشمخ بانفه ويتطاول ببصره المغلق حدودا لامرئية ربما كانت صورها لاتزال قائمة بين عينيه.

التفت نحوي، اذ نما الى سمعه صوت خطواتي .. بدت على وجهه بشاشة من ينتظر أحداً يكلمه أو يسري عنه، وكنت منذ صغري أحب هؤلاء واتمنى صداقتهم .. سلمت عليه .. ولفت نظري وانا اقترب منه التفاف جسده ومتانة تكوينه العضلي،كما لفت نظري كذلك كمال تكوينه الفني، ولأمرما تمثلته تمثالاً برونزياً، انعكست على وجهه المصقول أشعة خالدة .. قلت:

. لقد سمعت حوارك مع السائق..أتعرفه؟

. من أنت؟

. مسافر مثلك يروم السفر عبر الصحراء

شرط ان يكون الامر سليماً مأموناً .

. نعم ..أتفق معك.

أردف بعد لحظة سكون، ووضع عينيه فوق عينيّ:

. شرط ان تكون لك عينان مبصرتان..أن ترى،
يعني ان تميز الجميل من القبيح والنافع من الضار.
أنعم التدقيق تحت قدميك تر لوناً من القبح أو لوناً
من الجمال،ثم انظر في البعيد وانظر في الأبعد، كل
هذه الاشياء خافية عني الان، فما بالك لو ان عدواً
يحاول ان يقترب مني ويطبق على رقبتي بيدين
حديديتين او بفكين مفترستين..في الصحراء يلعب
القدر اخطر ألعابه،فكيف بمن يكون حاله مثلي؟

قلت وأنا اشعر بانني لم اتزود منه بالشيء الذي صار جزءاً من همي واهتمامي:

حتى اذا كانت الرفقة أمينة وسليمة؟

تسامى بعنقه المتطاول عني ثم أعاد سؤاله:

. من أنت؟

قلت:

. مسافر مثلك يقصد سرمارا حالماً بالعيش فيها
بعد ان خذلته مدينته الأم.

. أي نعم..أجمل المدن وانقى الأماكن واطيب الماء.
الصورة التي لايطالها الا الخيال.

. ستصل اليها.

.. وسأحقق فيها اغلى احلامي..ان اعيد

البصر لعيني..

. يقال ان فيها امهر أطباء العيون.

. ارجو ذلك.. أرجو ذلك ..

غادرني متلمسا خطوات شاء ان تكون واثقة على طريق عشبي حتى استقر به المقام أمام مجموعة كانت تتحاور في ماعسى ان يكون عطل العربة ليقتضي مثل هذا الوقت الذي اقتضاه.. القى تحية مقتضبة، وسأل ان كان احد يعمل على إصلاح العربة.. فاجيب عن سؤاله، أن نعم،الرجل الثاني. اما الأول فما يزال يستطلع الافق.

لزم السائق موقعة منذ أن ارتقاه .. من هناك مكث يتبين الخطوط القديمة التي حفرتها في الأرض عجلات سابقة، والنقطة التي عليه ان ينعطف منها تماماً، والطريق الذي لابد من ان يسلكه، وفي ذهنه تتجول اكثر من خطة وطريق، فلقد سبق له ان اقتفى الأثر في طرق أخرى، كما سبق له كذلك ان شاهد آثاراً أخرى غيرها خرج بها أصحابها عن الأثر المرسوم،واختطوا لأنفسهم سبلاً خاصة، وها هو الآن يرى ويشاهد كيف ان هذه الخطوط تلتفت وتتنافر في انحناءات وانعطافات متشابكة ومعقدة ليس من اليسير على كل أحد فرزها ومتابعة تفردها.

إنه يعرف ان هذه الخطوط إذا كانت ابتعدت أو تباعدت فانها سرعان ما تلتقي وتتحد كما لو أنها تعلن عن خطورة التفرد في طريق خاص في صحراء. يدرك مثله مثل غيره كيف انها تلتهم في متاهات

اسطورية الضال والمتحدي والمغامر، بل وحتى ابنها الذي رضع رمالها ان شطّت به قدم او خامر نفسه ركوب المحال. لقد سمع كيف انها تركت مغامرين طعاماً سائغا لذئاب وثعالب ونسور، وشاهد بأم عينيه عظاماً نتأت عن سطح الارض بعد ان سفت عليها الرمال، ثم مالبثت ان جردتها الريح للعيان. يعرف كل هذا، بل ويعرف انه لم يتزود لهذا الطريق التزود المطلوب، ذلك انه ماان رأى الركاب يتجمهرون في الساحة حتى استغل الموقف وانفرد بهم غير عابئ بما قد يعترضه من عقبات أو صعاب،وماقد يجره ذلك على ركابه من الآم. ومن ادراه ان هؤلاء العاطلين يقصدون سرمارا،ثم متى كان المنعطف حاضراً في ذهنه لو لم يمثل في اللحظه الأخيرة أمام عينيه..؟

عندما مر الأعمى من امامه صدرت منه كلمة "حسناً ".. وتساءل ان كان صدورها بارادته او رغماً عنه.. أكان ذلك تأكيداً لما أستقرت نفسه عليه ولما تزل تلوح فوق أنفه وبين حاجبيه صورة الرجل والوحوش الكاسرة.؟ صور العظام البيض تلمع تحت وهج النجوم المزهرة.. إنما صورة الصحراء بكل ماتنطوي عليه من تيه يستلقي عند تخومه افق معتكر؟

في لحظة واحدة أزاح عن رأسه كل ذلك وانحدر قاصداً العربة ماراً بمجموعة من الركاب اضطرت للجلوس عند منحدر واسع اعلنت خضرته عن قدوم مبكر للربيع، يقف على رأسها طالب عبد الحق يستمع

الى حوار بين أحمد نجم وشاكر عبد المجيد، الرجلين اللذين اصطحبا زوجيهما، فكانا أكثر الركاب رغبة في الوصول الى سرمارا آمنين..

بدأ أحمد نجم حواره بالتحدث عن أمانيه في مدينة الاحلام والرغبة بالوصول اليها، وبالطريق الأقصر والأكثر أماناً:

. حبذا لو يكون الطريق قصيراً واميناً في الوقت

نفسه، فانا رجل أصطحب معي امرأة .

اعلن شاكر عبد المجيد رغبته في الوصول ولكن بالطريق الأكثر أمانا:

. لايهمني قصر الطريق أم طوله.. إنما المهم

الامان، فانا الآخر مثلك اصطحب امرأة.

وكلّ في النهاية إ تفق مع صاحبه بان الصحراء اشد على المرأة منها على الرجل، وان مخاوفهما مشروعة، فهما والآخرون كذلك برفقة رجل اثبتت التجارب أنه غير أمين وغير مكترث والسفر معه عبر الصحراء غير السفر مع آخر غيره ذي حمية وأمانة. كما انهما اتفقا بين رغبات الجميع المتضاربة،على ان طريق الصحراء لم يختره أحد الا السائق وحده.. وان كان ثمة من لوم قادم فانه لن يقع الاّ عليه.

كذلك جعلت الانفعالات تأخذ صورها بين مجموعة وأخرى، بين رجل وآخر، بل بين الرجل ونفسه. ونادراً ماوجد أحد نفسه راسخاً على قناعة واحدة، فطريق الصحراء مغر ومخيف معاً، والطريق المعبد

تعترضـه مطبات وعقبات . أو هكذا يقول السائق . وكل شيء في طالع الغيب مجهول.

كم مضـى علـى اصـلاح العطـل فـي العربـة.. سـاعة أم سـاعتان، حتى انتشرت في الافق نظرات حسيرة كانت تتطلب بشتى الوسائل قدوم عربة منتظرة؟ لاشك ان أحداً لم يصدق ان فـي الصـحراء المثيرة للخيال، قـد يتوقـف الخيـال ويصـبح شيئاً مثيـرا للضـحك والبكـاء.. هنـا فـي هـذه النقطة من الصحراء اصبح لزاماً على الجميع الاّ ينظروا الى شيْ خارج العربة وسائقها فعليهما عقدت اعظم الامال.

وعلـى الـرغم ممـا كـان يبديـه السـائق، وكـان لايـزال مكبـاً علـى مراقبة شواهد مبعثرة، فلقد ترءاى لـي كاذبا مراوغاً لم يسبق لـه ان سلك هذا الطريق من قبل، وانـه دخـل مـدخلاُ صـعباً، منعـه عنـاده وصـلفه مـن أن يحيد عنه.

لقـد عرفـت الكثيـر مـن شـواهد الصـدق عنـد اصـدقاء ومعـارف وأعداء كما عرفت الكثير من صور الكذب عند هؤلاء وهؤلاء، فلم يتفق لي ان عرفت رجلاً مثل هذا.

لقد راودتنـي . لاانكرـ أفكـار شـتىً كنـت خلالهـا علـى الجانـب الآخر من الشارع العام، انتظـر عربـة قادمـة مـن سرمارا لأعـود ادراجـي الى مدينتي التي غادرتها تاركاً فيها، مع من تركت، اماً مأزومة بمرض القلب، بل أنني رأيت في لحظات تجلٍ صافٍ ووعي حاد، وبالجلاء الذي رأيـت بـه الغيـوم الفـائرة فـي الافـق البعيـد، رجـالاً ونسـاءً يحيطـون بهـا،

يوجهون رأسها وجهة ما ثم يسبلون عينيها، تتنامى من تحت هياكلهم الملتمة ضجة عميقة كنت اسمعها وانا على ذلك البعد البعيد عجماء كضجة النحل؛ اصاب خليته عارض ما.

ولما كنا جميعا تركنا وراءنا حفنة من ابناء قاصرين، أو اما مريضة تتدلى قدماها . كما أمي . في فوهة قبر، او أخا شبه قتيل أكلت جزءا من احشائه رصاصة من امام، او قصمت ظهره رصاصة من خلف فقد وجدتني أنا الاكثر تعلقاً بمدينة الوعود،أشد الآخرين إحساساً بالموضوع هذا والاعظم هواجس والاضعف مقاومة، فلقد برزت على غير توقع، وكلما ابتعدت بنا العربة،ظنون ومخاوف وشكوك لم اعهدها في نفسي سابقاً وماكنت فكرت بها من قبل.. صحيح ان التفكير في شيء غير تنفيذه أو الاقدام عليه، الا ان الرغبة في العودة دهمت قلبي فجأة وحركت كل ماكان غافياً في اقاصيه منزوياً في اطوائه،بعيداً عن يقظتي واهتمامي.

لاغرو ان لم أكن كذلك قبل الآن بعد ان جحدت مدينتنا أبناءها الأشد دفاعا عنها والأكثر تحملاً لويلاتها، الا ان العقبات التي اعترضت طريقنا والتهيب من رجل يفاجئنا كل حين بما ليس من سجايانا وحساباتنا، ألهب في نفوسنا هذه الصور من القلق والشكوك.. ومن يدري كم منا نحن هؤلاء المنتشرين على حافة الصحراء المتعلقين تعلقي بسرمارا من كان يمني نفسه بالعودة بعد ان مرّ عليه هذا العدد من الساعات ولم ير حتى الان طيفاً من أطياف مدينة الاحلام؟

لقد لفت نظري انتشار الركاب انتشاراً هلامياً، فقد غدوا كمن ينتظرمصيره بلا اعلان عن هذا الانتظار، واستحواذ اشياء صغيرة وغريبة على الأذهان بعد ذلك الاحتدام في المواقف والآراء، فحتى شاكر عبد المجيد الذي كان اعظم الركاب قلقاً واشد الزوجين ولعاً بزوجته، ومن لازم احمد نجم بداية الليل واول النهار،رايته يتعقب بقدم صناعية خفة زوجه الحامل في مطاردة فراشة ملونة كانت تحوم حول زهرة برية، لتلفت من حيث تدري او لا تدري انظار السائق اليها وتؤجج عواطفه نحوها، بعد ان سحقتها المرأة الهاربة بقدميها.

كانت المرأة هذه تتقافز في خفة لعوب وراء فراشتهاالجميلة، مثيرة، بالتواطؤ مع ريح جنت هي الأخرى بمفاتنها، شبق رجل عاش حياته في بيوت اللذة وعرف من عرف من بنات الغواية والهوى، وبيد لم يكن اكيداً من رهافة حركتها بالقدر الذي تجلى امامه الآن، احاط بالفراشة واختطفها وقدمها لها.

لم تفطن سهام حامد ولا زوجها الذي كان يتعثر في ملاحقتها، الى لعبة الرجل لكنها حينما تناولت الفراشة ورات تحطم اجنحتها لعنت هوس طفولتها واستحكام العادة القديمة في نفسها،فرفعت نظراً . كان ساحراً على قلب الرجل الذي اخذ بها . انكرت به عليه فعله، ثم تركت الفراشة تتدارك على الأرض شيئاً لا تعرف في اية كيفية
طرأ عليها او ألم بها.

لم تملك سهام حامد بعد ان احاط بها من حزن من ان تقول:

. لقد حطمت اجنحتها..! .

كنت اريد ان اقدمها اليك..لقد شاهدت

عذابك وانت تركضين وراءها.

. نعم ولكن..

قطع زوجها ما كان يفكر به للرد عليها، بان شكره قائلاً:

. على اية حال..شكراً لك.

والتفت الى زوجه وعلق:

. لقد انتهى الموضوع..وما عاد يهمنا شيء

منه.

وسحبها جانباً بعيداً عن موقع الرجل بعد ان راى في عينيه الرغبة التي قد تطيح برجل مثله على الأرض، متداركاً ما يمكن ان يؤول اليه الحديث المستمر من هواجس وردود أفعال قد تثيرها القدرة الفائقة والرشيقة التي تبدت في جسد بهذا الحجم، ليصطاد بيد واحدة وبسرعة خاطفة فراشة تمتلك الفضاء.

تبعت سهام حامد زوجها الذي تقدمها،مخلفة بين قدمي السائق الفراشة المختلجة، وبين عينيه فراشة كبيرة اخرى ترتدي ثوباً بنفسجياً مورداً بورود صغيرة سود من قماش مخملي ترف ينساب على الجسد انسياباً لدنا يلبس إهابة ويشف عن كنوزه.. ماتني تكبر كل لحظة؛ تلهب خياله وتعطر انفاسه.

فجاة ومن حيث لم يكن لأحد ان يتوقع بالضبط تلونت صفحة الافق، بهيكل عربة قادمة من مدينتنا في طريقها هي الاخرى الى سرمارا.. عربة من العربات الصغيرة التي فرغت منها ساحتنا، ساعتذاك، اهتز جسدي على رؤيتها برعشة ما، اذ مايزال الاختلاط الذي ولده في نفسي جمع الرجال قائما، وهم يحيطون بأمرأة مسجاة
كلما تقدمت منها النساء فسحوا لهن في المجال.

لم تشأ العربة ان تتوقف، بيد ان توقفنا في هذه النقطة وعلى ارض ترابية بعيدة بعض البعد عن الشارع العام ولد هواجس سائقها فتوقف ليسال عن حاجتنا.

من فراغ نافذة العربة الصغيرة صدر صوت ينادي باسمى، واسرع راكب وكان صديقاً لي يسلمني رسالة ويخبرني بضرورة العودة الى المدينة لأشتداد مرض امي واستفحال ازمة قلبها كما قال، ولموتها كما رأيتُ.

هنا.. قررت التخلي عن مواصلة السفر والعودة من حيث اتيت. وهكذا صار علي التحول الى الجانب الآخر من الشارع العام انتظر في نقطة منه عربة قادمة من سرمارا، بعد ذلك الحلم بها والطريق الذي قطعته اليها.

واصعب ما كان علي ان اواجهه اولا هو الوقوف امام طالب عبد الحق ومصارحته بما وطنت نفسي عليه، بعد ان غدا الرجل الوحيد الذي لابديل له؛ صديقاً في السفر وشريكاً في الهم.

ولكي اختلق اجواء تمهد لحديث شاق والرسالة لما تزل مطوية في يدي كانت تتواتر على نظري وذهني ابلغ صورالخيانات والخيبات التي تولدها مواقف، لها صعوبة موقفي، بين الأصدقاء.

بتلك الروح.. روح من وجد نفسه فجأة صغيراً مخذولاً يعصف الثلج بجسده، ولايملك غير كلمات جبانة قلت:

ـ ايها الصديق، ساخبرك بما سوف يحزنك..

وانني لآسف عليه.

لم يقل شيئاً، اول الأمر ، ثم سمعته يقول:

. ماذا؟

ولم اطق غير ان اقول:

ـ ايها الصديق القديم لا تلمني.

. حسن.. قل مباشرة ما تريد ان تقول.

لملمت جسدي النحيف المبترد، واطلقت كما الرصاص كلماتي:

. ساعود من حيث اتيت.

رفع راسه.. نظر نحوي وحدق ملياً في وجهي حتى تساقطت ابيات الشعر الكبيرة التي كتبتها على اللوح فوق انظار تلاميذي، وتهاوت من عليائها فرائد الحكم والأمثال التي ملأت رؤوسهم بها. وكما الأسد ينتفض على امر كريه قال:

. ماذا؟

كنت اعلم انّ موقفي هذا،وبهذه الصورة غير المتوقعة، سيثير في نفسه الآماً لاحصر لها، وكنت اتوقع رد فعله..الصمت لا غير..
اذ ما الذي بوسع رجل مثله ان يقول؟

لم يقل شيئاً، في الوقت الذي حسبت فيه ان عينيه ستفيضان بدموع اسخى مما كان يختلج في عيني، وجعل يتابع تدخينه وينصرف من بين ترددات انفعاله الى اخفاء بسمة ساخرة كادت تسفر عنها شفتاه.

وخيل الي ان ما يتمرد على شفتيه المطبقتين باصرار ان هو إلا بسمة نصر. فها هو الرجل الأقرب الى نفسه ينسحب من الساحة في اللحظة التي يتوجب عليه البرهنة على صدقه فيها، وهاهو ذاته ينفرد لذاته حتى ليكاد يستوحي من وحشة غربته وتفرده، رغبة عارمة في استدعاء قدره باقصى سرعة للتصدي له ولو كلفه ذلك حياته.

فلقد شاهد كيف تصدى السائق للمرأة بفراشة كسيرة كسباً لود مفترض متجاوزاً علاقتها برجل غيره هو زوجها، ومتحدياً مشاعر الآخرين ممن اعتبروا المرأة امانة تحت مسؤولية رجولتهم وخصوصية الظرف الذي هم فيه.. شاهد كيف راح يتابع جسدها بنظر ملتهب بعد ان تجاوزت وزوجها موقفه منهما، حتى تبدى لمن انتبه اليه، رجلاً بلا مشاعر ولا يعبأ بمشاعر الآخرين.

في الوقت الذي كنت اعاني فيه من موقف لا احسد عليه وثمة

ريح باردة تخترق عظامي، نهض مساعد السائق واعلن بين فوضى الركاب عن سلامة العربة وصلاحيتها لمواصلة الرحلة،وان على الجميع ان يجمعوا اشياءهم التي تناثرت على الأرض والتهيؤ للركوب.

لململت اشياء صغيرة تعود لي، منسحباً من طريق الآخرين الذين اسرعوا لولوج العربة.

في طريقي الى الشارع العام التقى نظري بغتته نظر طالب عبد الحق الذي كان اخر من توجه نحو العربة في لحظة تجمع خلالها كل ما يكوّن شخصيتي من قوة وضعف، وخير وشر، بل ان كل ما احاطني اللحظة تلك،جرني الى تلك الحالة التي تعصف بالانسان وهو يتخلى راغباً او مكرهاً عن اسمى ما يجب ان يتمسك او يتحلى به.

ولم اعجب من شيء بقدر ما عجبت من امر هذا الرجل وهو يقف يتاملني ثم يتقدم مني ويشد على يدي، ثم لايملك الا ان يحتضنني ويتمنى لي اخيراً عودة ميمونة وحياة ناجحة ويوصيني بعائلتي.

ولربما فعلت حسناً حين غضضت من بصري واقفلت على لساني، اذ بمقدور أي كلام في لحظة عاصفة كتلك ان يحمل مشاعري مهما بلغت قوة تعبيري؟ كانت المواجهة سريعة وحادة ومفعمة بالألم والقسوة،بل ان حزني بلغ اشده أن رايت طالب عبد الحق القوي الصاخب المتجاوز آلامه يقف في جانب، وانا الضعيف الحائر المرتبك اقف في الجانب الآخر، متباعدين منفصلين كأن لم يجمعنا ولو لزمن قصير

شعور مشترك عميق، كان كافياً لأن يربط برباط وثيق اثنين على الحياة والموت.

واذا كانت مشاعري تقزمت إزاء كل ما بدأ يعبر عنه هذا الأسم الواحد المشترك بين صديق قديم عزيز، واخر لادري ان كان هو نفسه او غيره، شجاع مقدام، فلقد ظللت اتابع بنظر كسير خطوات طالب عبد الحق، وهي تمضي به وئيدة متمهلة نحو العربة التي تهيأت للانطلاق، شاهداً في الوقت ذاته على افتراق العربتين.. تلك التي مضت صاعدة نحو ((سرمارا)) عبر الطريق العام، وهذه التي تحولت نحو عمق الصحراء، نابتاً على الأرض، وحيداً عند مفترق طريقين.

ان ما تناهى الى ذهني لحظتئذ؛ ان العربتين ستظلان مفترقتين ولن تلتقيا بعد ذلك في اية نقطة ابداً...

وهذا ما حدث:

اذ في الوقت الذي جاءت الأخبار فيه بوصول تلك التي سلكت الطريق العام، جاءت الأخرى عن توه هذه التي ركبت طريق الصحراء.

الراوي

كان من ظواهر ما لحق بالعربة وركابها من مشاكل وصعوبات، ان الساحة ظلت مقفرة من عرباتها ساعات .. وهي عربات صغيرة

مريحة ادمن الناس المحيطون بالساحة وجودها بينهم بعد اعتراضات متوالية فقدت حرارتها يوما بعد يوم ولم يجدوا بدا من التخلي عنها.

وعلى الرغم من عوامل كثيرة كانت تجعل الناس يتمنون السفر الى ((سرمارا)) ولو على عربات تجرها خيول ، فقد تجلى على وجوه الركاب وهم ينقادون الى ركوب هذه العربة، سيماء من عليه ان يختار بين امرين كلاهما مر ولا سبيل الى ما هو افضل منه : الانتظار ساعات قد تطول او الانصياع الى هذا الواقع الجديد.

ومنذ الساعة الأولى، بل منذ اللحظات الاول لانطلاق العربة كان يتراءى للناظر ان السائق والركاب كانوا غرباء بعضهم عن بعض، لا احد يعرف عن احد شيئا كثيرا باستثناء الرجل الأعمى الذي اعلن بعد ساعات من السفر عن معرفة تفصيلية به، ثم كتم صوته بانتظار فرصة لم تتحقق، كانت تراوده فيها احلام شتى من بينها ان يملأ بحقيقته الريح وآذان الناس ورمال الصحراء .. ولعل مالم يتنبأ به او يتوقع حدوثه احدهو مقتل الأعمى، بعد سؤاله" انت غريب " ثم صمته العميق المشوب بالسكوت عن امر بدا للآخرين ان ليس من الحكمة التصريح به او التحدث عنه.

فبعد انعطافة رقبة الأعمى نحو لوحة لم يعد يرى فيها غير اطياف باهتة منبثة في مخيلة مكتظة باسى عماه، تتابعت نظرات السائق مع خطواته المشوشة التي حلت به قريبا من طالب عبد الحق.

لم يكلم الرجلان احدهما الاخر، اذ كان البعد النسبي بينهما لا يشكل فرصة مناسبة للتواصل بين رجل مبصر و آخر اعمى لم يقصد احدهما الاخر، ولم يكونا صديقين.

واذا كان يبدو على ذلك الأعمى صمته غير المالوف وكذلك الذي يبدو على الاخر مقطوع الذراع، فان السائق لكي يقطع دابر هواجسه وما قد ينشا من هواجس عند اخرين، جعل يفكر في الطريقة التي عليه أن يختارها لكي يتخلص من لسان الأعمى قبل ان يفلت زمامه وياخذ طريقه الى اذان الآخرين.

لا ينكر السائق ان السؤال بث في نفسه فزعا شديدا كاد يعصف بجسده، الا ان ما انكره على ذاته، هذه رباطة الجاش التي واجه بها الأعمى ليعلن له انه هو غريب وليس غيره .. هو غريب ابن التي احتضنته في رحمها سرا ثم القت به على قارعة الطريق، ومضت دون عودة وفي طريق مجهول لا يعلم احد إن كان هوّة في فلاة او دوامة في نهر.

ومهما يكن، فلقد نسي الرجل او تناسى موضوعا لصق به صغيرا وغاب معه في الدروب الكثيرة والمحطات البعيدة عن مدينته ليعود اليها بعد سنوات كثيرة باسم جديد و صورة جديدة ، وقد ظنه صار في عداد الأشياء الكثيرة المندثرة التي حفلت بها مدينته، وتحفل بها عادة كل المدن النائية، حتى ايقظه هذا الأعمى ليلهب نفسه وينكا جرحه.

ولكن اذا كان هو، وفي تقدير لا يد له فيه، لايعرف اباه فمن يا ترى يعرف اباه معرفة الحق قبل ان يفتح عينيه على رجل يطل عليه، يحدق في وجهه ويبتسم له، يدعيه و يمنحه اسمه وهويته ؟

من منا اختار اباه ، فقال هذا ابي وليس ذاك، ومن أي ناموس مقدس غير جوف الأم وبعيدا عن أي ظهر تتشكل حقيقة الابن ؟

لقد راى امهات عاهرات حظين من الأبناء والناس بوفاء وتقدير، واباءً اقزاما او مقطوعين احيطوا بحفاوة و اكرام .. وهاهو يسمع ممن لم يكن لأبيه شان و لايعرف ان كانت له ام رؤوم، هذا السؤال اللعين .. لا ان سؤال الأعمى حاد و نافذ ومهما يكن واقع الحال فانه مضى في القلب مضي السكين المرهف يحس دماءه تنزف عليه حارة دافقة يضيق بها صدره وتتوتر خلجات قلبه.

منذ ان قطعت العربة طريقها الطويل، بعد ان غادرت المدينة وهو يراقب الأعمى من مرآة فوق راسه، ويرى فيه شيئا ناتئاً يقف في مجرى تنفسه، صار عليه ساعة بعد اخرى ان يزيحه عن طريقه ولو كلفه ذلك عمره .

وليس ادعى عليه من موقفه، حين هبطت عجلات العربة الخلفية في هوة صغيرة توقفت عندها العربة عن السير. فلقد هبط الركاب جميعاً يخففون من ثقل العربة ويخفون الى معالجة الموقف،الا هو فلقد اصرعلى المكوث في كرسيه لم يتزحزح عنه.

كانت العربة قد حادت قليلا عن رسوم الخطوط المشتبكة التي احدثتها عربات قديمة، ولم تكن قطعت شوطا طويلا بعد، وغاصت عجلاتها الخلفية في ارض انخفضت تحتها وصارت تضرب في فراغ .. وشيئا بعد شئ، وبعد جهود مضنية ردمت الهوة فارتفع جسد العربة الخلفي واستوت على الأرض .

بعد ان نهضت العربة من كبوتها، هبط السائق يلحق بمساعده ويدعو الركاب الى دخولها.. هناك على الأرض اجرى الاثنان حديثا خاصا وهما يستطلعان الطريق مرة اخرى.

فلقد اربك مطر سابق قريب معالم الخطوط الكثيرة المتداخلة مما جعل تبين خط ما دون غيره امرا معقدا، فضلا عما تخلف من برك اذا اعترضت الطريق واضطر السائق الى الخوض فيها خلقت عقبة ما.

اوما السائق الى مساعده نحو طريق معين ثم قال ؛ اذا امسكنا جيدا ببداية الطريق الصحيح فعلنا ما هو احسن. لم تمض لحظات حتى اضاف وهو يخطو نحو كرسيه؛ ولا اعتقد ان غير هذا الطريق سيكون طريقنا، فهو كما اعتقد الطريق الوحيد الصحيح.

على نحو فجائي شهقت العربة شهقة قوية نزت على اثرها عن الأرض وخلفت وراءها كتلاً طينية نثرتها العجلات المسرعة، ثم ما لبث ان غدا كل شيئ مختلطاً على عربة تستعيد صلاحيتها بعد ان استيقظت من سقطتها وتسير في المجهول نحو المجهول.

منذ ان مضى على سير العجلة ساعة تحول اليقين الهلامي الى عماء مطلق، إذ تلاشت المعالم والحدود وصارت هناك تحت نظر الطائر المحلق عربة وحيدة تتهجس طريقها عبر شبكة من طرقات مقطوعة او ملتوية او ملتفة على نفسها، او حتى منفلتة عن غيرها، غدت تحت مطر لم تبخل به سماء وغبار ورمال تسف بهما صحراء، اشبه بحبائل شبكة قديمه ملتفة على نفسها هجرها صياد .

ان تغيرا لاح في الأفق انعكس سريعا على نفوس الركاب لم يلبث ان خبا بالسرعة عينها احدثه لون الأرض التي اكتست في مواقع منها بخضرة زاهية تداخلت معها هنا وهناك الوان شتى أطنبت بها زهور برية في عرس وحشي كان الفرح فيه يستدعي شجنا ما .. لذلك كان صوت صادق عبد الحميد الذي انبثق فجاة صورة من صور النفس المرهفة التي تتالق في تآلف مع الطبيعة كلما كانت جميلة و مثيرة ..

كان الصوت معبرا، تفجرت فيه أعذب الطاقات التي تترغبها النفس المحزونة في صوت.

بدأ حيياً خافتا، اعترضته موجات باردة من التردد والحياء، لكنه ما فتئ ان اخذ ينمو ويستعيد عافيته، ليصبح قويا عريضا .. مشحونا باسى من كان قويا ضعف او كريماً ذل او حبيباً هُجر. وكلما
اتسعت طبقته استقر على قاعدة من الشجن الخفي المخبوء في طبقات الأصوات الجميلة النادرة.

كان صوته الملون هذا الذي يخرج من صدر عليل موجوع

يدخل في الصدور الملتهبة و يتوغل في الحنايا ، يجمع احزان الذي يترك مدينة طفولته بافراح الذي يبتعد نحو او يقترب من مدينة سعادته .. قريبا وبعيداً معاً، تستزيده الأذن ولا تشبع منه النفس.

وكائناً ما كان الأمر، فقد غدا السائق اكثر الآخرين انسياقاً واتساقاً مع الصوت، ولربما كان من اثره ان غدت سرعة العربة اكثر تواتراً وانطلاقا، كانت فيها الصحراء تتقدم مثل غول يلتهم الاشياء ثم يقذفها في آن مرة بعد مرة وبلا انقطاع.

ان احدا من هؤلاء الذين استمتعوا بالصوت واثار في نفسه ما اثار لم يعد سعيدا. فما زالت المرآة المنحنية تعكس وجه السائق المتالق وتفضح ترجح عينيه بين موقعهما الجديد، الوجه الجميل ، وبين الخطوط الأرضية التي باتت غائمة الان.

على كرسيه الذي اصبح اكثر اتساعاً لجسده واكثر ضيقاً على نفسه، منذ ان غادره صديقه سليم ناصر، استعاد طالب عبد الحق موقفه من السفر الى سرمارا عبر منعطف الصحراء، وهو طريق أدرك منذ الوهلة الأولى للإعلان عنه صعوبة الخوض فيه على من لم يجربه وعلى سائق من هذا الطراز.

وحتى يقتل التردد الذي لا يغني عن شئ لحظة كان القرار فيها يعني ما يعنيه، قرر ان يمضي معه حتى النهاية. وحتى هؤلاء المعطلون الذين استسلموا له واولوه ثقة ما، بل صاغوا لأنفسهم احلاماً وامنيات كانوا اكثر حيرة، فهم اما ان يتأزروا معه، ولو على مغامرة، مجبرين او

مخيرين، واما ان يعودوا الى مدينتهم خائبين، وأن يركبوا الخطر نحو مدينة اقل ما تنعم به هو السلام لخير من ان يعودوا الى مدينة غادروها كما لو انها مدينة جذام. من هنا كان يلوح لطالب عبد الحق امل في ان ماانطوت عليه الصدور، ربما آزره عند محنة ما، وهو ماسوف يتحقق عند موقع العين، وغب مصرع الاعمى، على نحو من الانحاء.

فعند العين التي عثروا عليها مصادفة، كان لابد لجماعة تتوه في الصحراء على خطا احدثه قرص دائري تمسك به يدان عابثتان، ان يحصل نزاع قل شان هذا النزاع ام كبر.

ذلك ان نظرات السائق التي ما انفكت تتواتر بين المرآة والطريق تواتر نظرات الماخوذ، سيسهل الأمر على عجلة كتلك وبيدي سائق كهذا ان تبتعد قليلاً او كثيراً عن طريق ليس سوى خط باهت في ارض خلاء، وتنحرف هذا الانحراف الذي انتهى بها عند موقع العين ذاك.

مع انحراف العربة لم يابه السائق الى ما قد يجره على نفسه وعلى الآخرين هذا الأمر، انما كل ما فكر فيه؛ ان الانحراف لم يكن خطيرا، وان هذا الطريق الذي يختاره الآن سيقوده في النهاية الى طريقه الذي اضاعه ، منذ متى لا يدري ، وانه لابد عاثر عليه . اما وقد غاب تماماً ولم يعد له من وجود فقد صار عليه ان يقلب نظره في الأرجاء، وان يسترق نظرات مهزومة نحو المرأة التي شاركت الآخرين ذعرهم، وان يقف مرة واخرى ويهبط من العربة باحثاً عن معالم الطريق التي اولاها ظهره منذ ثلاث ساعات.

ثلاث ساعات مضين و العربة تسير دون هدى، بحثاً عن خيط او علامة تهدي الى طريق صحيح، حتى عثر على العين ..

توقفت العربة، وكانت عجلاتها قد ثقلت تماماً لفرط ما علق بها من طين ورمال أصبحت معهما تفقد سيطرتها في انزلاق لا ارادي مفاجئ اشبه بالعوم كانت تتسببه الأرض الرطبة ، التي لم تكن ، في مواقع منها ، قد جفت بعد.

كان اكثر ما اثار هلع السائق، هذا التيه الصحراوي الهائل الذي كلما استمد منه دنوّا ابتعد، وهذا الغياب التام لكل شاهد على طريق سلكه بشر او دب عليه حيوان، مع ما آل اليه الوضع البشري الملموم بين عينيه في زجاجة لا يتعدى طولها بضعة انجات.

لحظة بعد اخرى كانت وجوه الركاب تعلن، في مظاهر بادية، عن الأستياء، وعن غربتها عن الرجل الذي يقودها، وتبحث في الوقت نفسه عن منفذ ينقذها من الوضع المجهول الذي آلت اليه.

ولعل اول من لحق به الأذى، بعد ذلك الدوران اللولبي، كانت سهام حامد التي اعلنت عن حاجتها الماسة الى الراحة، بعد ان الم براسها دوار. ولم يعرف احد حتى نهاية الرحلة نهايتها المؤسفة، حين غادرت العربة العين ثم عادت اليها مجدداً في التفاف ودوران آخرين، ان الطريق الذي اتخذه السائق كان قد انقطع وتلاشى تماماً، وان بعضاً ممن سلكه قد عاد من حيث اتى ، مترسماً في عودته الطريق عينه في رحلة ان كانت مضنية فاشلة، فانها في الأقل عادت بركاب احياء.

. ذلك ما حذ ْرته، وما حذ ّرت منه.

كذلك قال الأعمى قبل وصول العين والتوقف هناك. وعقب طالب عبد الحق :

. نعم. وانه لطريق هلاك.

اما احمد نجم وشاكر عبد المجيد الذي سيدفن في عزلة البدو فقد اعترفا ان حوارهما في أي الطريقين اسلم، كان حواراً مخجلاً نم عن غفلة كبيرة، اذ كان عليهما ألا يوافقا على مشروع يتخذ الصحراء واسطة له، ما دامت الصحراء مطلقة على هذا النحو، وان مصير من يضل فيها على هذه الدرجة من السوء.

. كنا غبيين .. كان يجب ان نفكر كثيراً،

وان نحسب للموضوع الف حساب ..

ثم لا نوافق عليه ..

واما نديم ضاري، وهو الذي لم يلفت نظر طالب عبد الحق حتى الآن، فلقد اعتصم بغضب صامت كانت قدمه المبتورة تتوتر عليه.

. ذلك ما حذرْته .. وما حذرّت منه ..

كذلك كرر الأعمى، وكلما مرت اللحظات، وادرك بحسه المرهف صعوبة الموقف، تفتحت عيناه وابصر طفلاً اشعت الشعر ، رث الهيئة، ممزق الثياب ، يتسكع في الأزقة والطرقات، يعطف عليه المارة والجيران، حتى اذا شب ونهض وصدمته غمزات الأتراب، ترك

المدينة نحو مدن اخرى ، سنين طويلة عاد بعدها رجلاً يترصد الأصداء ويترسم مجرى الدماء التي سالت على الأرض من راسه او من رؤوس اولئك الأطفال الذين تحولوا في ذاكرته الجديدة الى رجال اغراب.

كانت حرب المدينة قد انتهت، وصار شغل الناس الشاغل كيف تعيش بعيداً عن سمعة امك او سمعة ابيك، ثم اذا ضاقت بأبناء انفتحت لآخرين، ومنهم هذا الذي غادرها شريداً محنقاً ليعود اليها وراء مقود عربة كبيرة .

لكن ان انسته فترة الغياب صور العطف التي لقيها من عوائل آوته واحسنت اليه، فانها لم تمسح من دواخل صدره نتوءات اولئك الأقران التي ما تزال نفسه تئن بها حتى الآن ..

لقد ترصد النظرات وترسم الخطوات فاطلق العنان لجسد لايعرف إلا لذته في مدينة لم تعد تعنى بشيء اسمه الماضي، بل لم تعد تتذكر حتى ما خلفته حرب آثارها ما تزال خضراً.

كانت العين وقد ضاع الدليل ، أي دليل ، الى الطريق الصحيح واختلطت على ذلك الرؤى و الأقاويل، اشبه بلمسة نبوية على جسد مريض كان اسلم مقاديره للموت.

فبعد ان توقفت العربة، وتقرر التريث هناك مدة من الزمن ريثما يتم تبصُر الطريق، اقبل الركاب على الماء ،في لهفة حزينة كانت تعكس عمق الآلام المبرحة التي لحقت بقلوبهم وانفسهم منذ الانعطافة نحو الصحراء.

آخر من تزود بالماء طالب عبد الحق بعد ان ناول الأعمى كاساً منه. قدَر الأعمى ان من ناوله الماء هو ذلك الرجل الذي اكدت رؤياه انه رجل حصيف بعد ان اشار الى ان هذا الطريق طريق هلاك.

. اشكرك .. كانت حاجتي الى الماء شديدة.

. هذا ما قدرت .. لم اشاهدك تدخل المطعم ؟

. ...

لم ينتظر طالب عبد الحق كلاماً ، فاسرع الى حقيبته، واستل منها كيساً ورقياً احتوى طعاماً جاهزاً ناوله منه لفافة، جعل يتناول منها الشيء بعد الشيء في هدوء يفصح عن شهية غير مفتوحة، حتى قال :

. لولا الصداع لما تناولت طعاماً ..

ما ان تخلو معدتي من الطعام حتى تبدا

بافراز عصارة تثير وجعاً في راسي.

وضع عينيه ازاء مستوى ما من عيني طالب على الرغم من فارق الطول و تابع :

. والا لكان الطعام آخر ما فكرت فيه.

من طرف آخر انشغل الركاب في ما عدوه وجبة اضطرارية إذ تناثروا هنا وهناك وبداوا يتناولون طعاماً ادخروه في حقائبهم مما اعدوه في بيوتهم او ابتاعوه من المطعم او من بعض الباعة المتسكعين على جانبيه.

. هذا شاني انا الآخر .. قتلتني السيجارة،

لكن لولاها لكنت في عداد المجانين .. السيجارة !

بهذه الكلمة انهى عبارته التي نفثها حارة دافقة بالتبغ والدخان.

. لم اعرفها، ولم المسها.. اشياء كثير لم

تخالط نفسي ودمي.

احاطه بنظرة عطف و اعجاب ، وسحرته هذه الصيغة الملفوفة لجسد ربما كان الجسد الوحيد الذي لم يصغر او يتصاغر تحت سطوة هذا الفضاء الممتد.

في بقعة ما انزوى السائق و مساعده يتناولان طعاماً بشهية تامة، ويتبادلان النظر، او يستطلعان كثافة الغيوم التي تركزت في قمة السماء وانبثت كتلاً متفرقة في الأرجاء.

بين آونة واخرى كان السائق يهر ّب نظرات متلصصة نحو سهام حامد التي شاركت الآخرين تذمرهم وقلقهم مما قد يواجههم من مصير غير معروف. ولم يكن ذلك مفاجئاً، بيد ان ما اصبح مثيراً، ذلك اللقاء بين الأعمى و طالب عبد الحق، وما يتردد بينهما من همس يثير في النفس الظنون.

ثم ، ان ما اخذ يظهر بجلاء انه أمسى وحيداً، حتى بات مساعده الذي رباه صغيراً ونما في كنفه نمو ّ الابن الحقيقي، يفقد بريقه تحت وطاة هذه العزلة القاحلة بينه وبين الآخرين.

غير انه وهو ما ينفك يتحسس سلاحه كل لحظة، يستيقظ على حقيقة ان هؤلاء الذين يكونون جماعات صغيرة منعزلة قد ينسجون

خلالها اوهاماً، ليسوا إلا معوقين فقدوا بهذه الصورة او تلك مراكز قواهم الحيوية، فهم بذلك لا يشكلون أي خطر جدي عليه، هذا اذا فكروا في شيء.

بنهوضه المفاجئ باغت سكينة صاحبه الذي انبرى ينهض معه، قبل ان يحط يده على كتفه يدعوه للمكوث في مكانه.

من مكانه الذي برك فيه لبث الرجل يتابع خطوات سيده التي حلت به عند الأعمى وطالب عبد الحق ..

فوجئ طالب عبد الحق بظلال كثيفة تخيم على جسده، وبيد تهبط على كتفه .

. عفواً لحظة واعود اليك.

وجه طالب عبد الحق كلامه الى الأعمى وتبع السائق الذي تقدمه الى نقطة بعيدة وبادره بالسؤال :

. تفضل ماذا تريد ؟

رد السائق بصوت حاول ان يكون حميماً :

. والله لا اعرف ماذا اريد .. ولكن فجاة وقع اختياري عليك .. ذلك انك تعرف الوضع الذي نحن فيه، وخلال متابعتي لهذا الوضع لم اجد غيرك من الركاب من اعتمد عليه .. انت رجل عرف ،لا بد المواقف الصعبة من خلال كونك جندياً خاض غمار الحرب، لذا توسمت فيك

الموقف نفسه حين نكون وجهاً لوجه امام اولئك
الذين لم يفقهوا جيداً سلامة موقفي من الطريق
الجديد وظنوا بي الظنون .. انا رجل عرف هو
الاخر المواقف الصعبة، لكن دون الرجال لايمكن
ان يكون هنالك شجاعة او ثباث ..

قطع كلامه وانعم تأمل وجه طالب عبد الحق ملتمساً شيئاً من اصداء كلامه عليه، فراعه هذا الاحمرار الذي انتشر علىعينيه والدموع الدموية التي توشك ان تسقط بين قدميه، ثم جعل يتامل هذه الكتلة اللحمية التي تكاد تكون مترهلة.

. لابد انك فقدتها ..

عطف على كلامه بان اشار الى يده ولم يكمل..

رفع طالب عبد الحق راسه ليواجه نظره :

. نعم .. لقد فقدتها .. ولكن في حرب ،
وليس في شجار.

. ...

. ثم انني ، واصل، لم اتوصل للأسف الى ما
تريده بالضبط ؟

طوق كتفيه بذراعه الطويلة وقاده متلطفاً الى مسيرة خطوات:

. اريدك ان تكون معي .. ناكل ونشرب سوية،
نجلس معاً، ونواجه الأمور كما لو كنا شخصاً واحداً.

ولئلا يجعل من اللقاء نقطة مثيرة للشكوك اجاب :

. وها نحن جميعاً كذلك.. تضمنا عربة واحدة
وطريق واحد، ومصير مشترك، فما الذي يفرقنا
بعد ذلك؟ او قل ما الذي يتراءى لك؟

قال بدهاء محاولا ان يستشف شيئاً مما قد تطلقه غفلة عقل اوهفوة لسان :

. الاحتمالات كثيرة .. وان تواجهها وحدك
غير ان تواجهها مع رجل اخر مثلك.

. حقيقة لم اسافر سفراً طويلاً من قبل .. اذ كان
في اعتقادي ان مدينتي افضل المدن، عليه لم اطلع
على شيء مما يحدث عادة اثناء مثل هذا السفر
لكنني اعتقد ان المسافرين يصلون اماكنهم، او
هذا ما ينبغي .. اما ما ينشا اثناء ذلك فمرهون
بالجميع وعلى الجميع ان يفقهوا ذلك.

انتبه السائق الى كلام عبد الحق واعتبره شيئاً بديهياً، لكنه فكر ان هذا الرجل قد يصبح في محاولة ثانية صديقاًاو شبه صديق.

. على اية حال .. ليس بيننا وبين أحد خلاف،
الا ان السفر يحتاج الى صفاء النفوس.

قال ذلك مستلهماً فتنة سهام حامد التي كانت بثو بها المزهر المسترسل تلون عينيه.

هناك وهما يعودان من حيث اتيا التقت نظراتهما على عيني سهام ذاتها التي كانت تعالج ساق زوجها الصناعية بعد أن ارتبكت به قليلاً، قال طالب عبد الحق:

. اعتقد معك .. ان السفر يحتاج الى شيء

مما قلت .. ولربما نحن نعيشه الان.

لم يلمح شيئاً مما المح اليه طالب عبد الحق. بل ان الأخير وجده رجلاً تخطو به خطواته قبل عقله، وهذا ما استثاره قبل ان يستهين به.

. انت على صواب، فنحن احوج الى

صفاء النفوس.

كرر وانعطف عنه متخذاً طريقه نحو الاعمى، مخلفاً اياه ياخذ سبيله باتجاه مساعده، ولكن بخطوات التائه الأعمى الذي مهما تعثرت به قدماه لبث بصره معلقاً في الأعلى وفي نقطة، وحده يعرف، مقدار عتمتها..

مالت الشمس للمغيب او اعلنت عن ذلك بما انبث من ظلا ل رخية على الأرض، فايقن الجميع ان الوقت حان للاستسلام لقرار اخر ليس لأحد، غيرالسائق، دور فيه .

مع الظلال الذي اخذت تمتد وتنبسط كانت ظلال اخرى تتفشى في فؤاد طالب عبد الحق :

فمن انا ليختارني دون سواي .. واذا كان هنالك من قطعت ساقه، فهو يمتلك في الأقل يدين اثنتين او ذراعين قويتين ،ولست إلاّ مقطوع يمين، ثم هل هنالك من دلالة على علاقتي السابقة بالمرأة الهاربة وما دلائل قلقه وتوجسه مما قد يواجهه به رجال عزل معطلون وامراتان يغازل احداهما من وراء ظهر زوجها ويظن انها ستكون عشيقته في قابل الساعات؟ كلا .. الرجل هذا..هل يكون رجلاً آخر لاتدل سيماؤه عليه ولا يؤخذ من حركة او كلام .. جسده الصامت وصدره المغلق كيف تحركا به نحوي ليطلب شيئاً ان دل على .. فانما على خوار عزيمة وضعف ؟ في الصمت قد يتبدى الرجال على غير ما يتبدون في الكلام، فهل هم كذلك في الليل والنهار؟

بينما كانت عودته تنتهي به عند مجلس هيأه له مساعده عند جانب من العربة، كان طالب عبد الحق قد التحق بالأعمى ..

على شظايا النور التي كانت ما تزال تنبعث او تقاوم الغيوم وظلال المساء، لاحظ عبد الحق جسد الأعمى يتراقص تراقص الطير المذبوح. وضع يده على ذراعه، وكان هذا شعر بمقدمه، وساله بود :

. مالك ؟

. لاشيء.

. بل قل . ما بالك ؟ ما الذي جرى؟

. شيء خارج ارادتي 0

. اذن لابد من ان وراء ذلك شيئاً ما ، شخصاً ما !

دمدم الرجل بكلمات غير مفهومة اعقبها بكلمات اخرى ، عندئذ افصح :

. هذا السائق ووضعي الشخصي ..

. ما الذي تشعره تحديداً ؟

غمم كلمات اخرى احتدم بها صدره ، حسبها طالب عبد الحق لغة من اللغات القديمة المنقرضة التي تعتمد اصواتاً تبدو للآخرين مبهمة.. وتراءت له صور الغابة ونداءاتها المشحونة بالرغبة والتمرد والحياة .. ترى ايكون الرجل هذا سليل غابات؟

. قل .. يا ايها العملاق .

قال ملاطفاً .. وانطلق صوته حاراً مشحوناً تتنازعه الانفعالات.

. عماي .. ان تفقد شيئا مهماً كعينيك فذلك
خيانة .. خيانة الحياة.

. كلنا دفع الثمن ..انت تعرف ذلك.

. لاترطب خواطري ارجوك .. فمكافأتنا هذا
الذي يجول بنا في هذا المجهول.

ترك عبد الحق يده تسترسل على ذراع الرجل المثلوجة، وكانت ما تزال ترتجف مع جسده المهيب، مفكراً في الصورة التي من المحتمل

ان يكون عليها رجل مثله في رحلة كهذه، ويمتلك عينين سليمتين .. كان حزيناً وكان حزنه بما يعكس من مظاهر عميقة يثير الاعجاب.

. ان الرجل ابن امه لا ابن ابيه.

اطلق كلامه بعد همهمة على عجمتها، كان يحسها ملتهبة او نابيه، الرجل ابن امه لا ابيه .. اين سمعها هو ومن قالها فوق اذنيه مثلما قالها الأعمى هذا ؟

حاول ان ينعطف بافكاره إنما باحزانه الى شاطيء ما، الى بحر يغرق فيه الانسان همومه وآلامه، الى غابة تنتزع من الانسان وحشيته، وخططه واهدافه .. الى فضاء حر يضيع فيه صوته وهويته وكيانه ..

. يا صالح .. كيف ستكون، لو انت الان في

نزهة .. في غابة آمنة .. في بحركالبلور 00

اسمك صالح؟!

إنقطع اهتزاز جسد صالح.. انفتحت اذناه، وتلاشى دوُي ذاته:

. اذن لانفتحت عيناي .. واسالك : كيف ستكون

لو انت في نزهة .. في غابة .. في بحر.. في فلاة،

وقرينك غريب؟ اجب يا طالب ، اسمك طالب ؟

اذن نحن متعارفان، ولكن منذ متى يا طالب،

يعرف طالب صالحاً، ويعرف صالح طالباً ؟

.. منذ متى؟

رفع راسه للأعلى وردد، وَمن من هؤلاء من لم يكن من امه لا من ابيه ؟ ومضى محدقاً في الأعالي في النقطة المجهولة التي تعارف عليها العميان، يلعب في مداها المعتم المضيء، رجل اسمه طالب عبد الحق، واخر اسمه غريب وآخرون اسماؤهم، احمد نجم، شاكر عبد المجيد، صادق عبد الحميد، سهام حامد، سالم داود، سوسن نوري وغيرهم وغيرهم في هذا المكان وفي غير هذا المكان.

شخص واحد من هؤلاء جميعاً لم يلح لصالح في لوحته المضيئة الظلماء، حتى قبيل ان يخترق قلبه الليلة النصل كالثلج الحار .. سيغيب عن باله، ذلك الأسم اللعين ولسوف يتوارى عن ذاكرته ورؤياه تماماً بعد ان اطاح بهما بيديه.

اما طالب عبد الحق فقد كره ان يقول شيئاً حين لمح شاكر عبد المجيد وزوجه سهام حامد ضيفين على مجلس السائق ومساعده، وقد دخل الجميع في حديث طويل سينتهي الى رقصة يدعو اليها الجميع.

عند نقطة معينة، افترق الاثنان، انحرف الأعمى نحو الجماعات التي انتشرت في هيمان حائر حول العربة والعين، حتى استقرت به قدماه عند تلة صغيرة معشوشبة احتلها بجسده الكبير جالساً على قمتها مثبتاً عينيه عند نقطة في الأفق، فبدا وقد استوى له ذلك، مثل عملاق اسطوري يحرس جماعة ملتاعة حلت عند عين ماء. كذلك ما طاف براس السائق حين اشار في سخرية ما جنة لم يشاركه احد فيها سوى مساعده " حارسنا الأمين " مدققاً في الهيئة البارزة التي احاط بها خيط

من نور فاصل عزلها عما اكتنفها من عتمة و ظلام، وجسد معالمها خير تجسيد، ثم اذا تسلل اليه شخص او شخصان ومضوا معه في الحديث شعر بغصة تخترم صدره، ندم اثرها على كلامه غير المحتسب هذا، وعدّه من هفوات العقل لا من هفوات اللسان.

عند هذا، اذ هو يفكر في ما عسى ان يكون عليه حديث مغر يطيل به زمن اقامة ضيفية، كان عبد الحق يعاود التفكير في الأسباب الحقيقية والخفية التي حملت السائق على اختياره والتقرب اليه دون سواه، وما إذا كان يتوقع شيئاً مما يحتمل ان يكون ظهر على احد او فكر فيه احد، وماذا عليه هو طالب عبد الحق، لكي يمسح عن عينيه ظلال شكوكه، ان يفعل مع هؤلاء المنصرفين الى حيرتهم ومازقهم في جماعات متفرقة اشبه بجزر منفصلة.

اول مرة ومنذ ساعة انطلاق العربة من المدينة المخربة حتى الحلول في هذه الأرض الخلاء، عند هذه العين التي جمعت الركاب على شيء واحد اسمه الماء، يدقق طالب عبد الحق النظر في الوجوه، يقرأ مظاهر السلوك يستدل ولو على دلالة اوقدت في قلب السائق هواجسه.

من بين هذه الوجوه كان وجه صغير لرجل شاب نحيف طويل فقد قدمه اليسرى من عند الرسغ فكانت ساقه . متى ما لاحت الى جوار عكازه من خلال فتحة البنطلون . اشبه بعمود خشب دقيق.

كان هذا الوجه المثلث الطويل نسبياً بما انطوى عليه من انف دقيق وعينين صغيرتين وشارب اسود مسترسل على الجانبين، يثير الرهبة والقلق، لا سيما وقد انضم صاحبه على صمت يبعث على الريبة، باستثناء ما كان يلفت النظر اليه من نظرات دقيقة حادة وعلاقة صامتة برجل او رجلين من الركاب.

لقد حرك هذا الوجه بما نم عنه من دلائل نبيلة وثعلبية معاً عواطف سربت الى قلب طالب عبد الحق سعادة غامرة، واثارت في الوقت عينه قلقه وهواجسه. فان بثّ في نفسه شيئاً من امال وتطلعات نحو من سيكون نصيره وحليفه، فقد اوجس منه خيفة ان يكون واحداً ممن اثاروا في قلب السائق ريبته وبالتالي يقظته وحذره، ومن هنا . فكر . ان التواصل مع رجل مثل هذا قد يضره بقدر ماينفعه، واذا كان ثمة من حيطة يجب ان يلتزم بها إزاء علاقة ما فانها العلاقة مع هذا.

في هذا النِهاء الذي صار كل شيء فيه يوحي بالتفرد والعزلة والضعف ويحتاج في الوقت ذاته الى القرين الأمين، رفت روح طالب عبد الحق على وحشة سليم ناصر فانثلم في نفسه شيء ما وشعر بالأسى على صداقة ابتكرت شرطها سريعاً وانطفات سريعاً، ومن سحرها الفريد انها قامت على ما يشبه الخيال وانتهت على ما يشبه الجنون.

ان ما فكر فيه طالب عبد الحق لم يكن صحيحاً كله، اذ ما ان هبط المساء وشاعت في الكون عتمة موحشة، وصار المبيت حول

العين امراً لا مندوحة عنه، والبحث عن طريق للخلاص مرهوناً بيوم قادم، حتى اطلقت الصدور اصداءها المجهولة، تجاوباً مع صفير الأرض العميق تحت هيمنة سكون اول الليل.

التحم الركاب وبداوا يتقاربون تقارب القنافذ المقرورة، واخذ الهمس ينتشر بينهم متخذاً صفة تقريع الذات على اقترافها السفر في عربة كهذه ومع سائق كهذا، على صبرها الطويل على ما لحق بها، وتكتمها على ما كان يجب ان تقوله او تفعله او تشير اليه .. لوم الآخر القرين ؛ فان لم اكن انا فلماذا لم تكن انت، حتى انتهت اخيراً الى السائق ، فالذنب ذنبه اولاً واخيراً، وهو السبب في كل ما حدث .. نحن اوليناه ثقة صادقة عمياء، فكان عليه ان يقودنا بمقتضى ما نريد لا بمقتضى ما يريد.

في الجلسة الخاصة التي ضمت شاكر عبد المجيد و سهام حامد والسائق ومساعده، طفق صوت اغنية بدوية يصدح من جهاز تسجيل قريب، وقد بات يتجلى للعيان ان السائق ومساعده يتناوبان الدخول الى العربة لحظات قصيرة يخرجان بعدها مسرورين منشرحين .. كان صوت الأغنية والأغاني التي تلتها، يرتفع كلما مرت اللحظات، بل ان صوتاً للسائق بدا يرتفع متعتعاً بنشوة بادية حتى كانت لحظة توهجت فيها نفسه توهجاً شديداً، فارتفعت يده للأعلى متساوقة مع ايقاع الأغنية، وملوحاً بها للاخرين ذات الشمال وذات اليمين.

كانت اشارته تلك بادرة الدعوة لحضور مجلسه، وما ان غاب في عربته لحظة حتى عاد يمسح فمه بيده ، قائلاً بصوت مخمور ثقيل!

. هيا لنحتفل ..

قبل ان ينهض مساعده لدخول العربة وياخذ دوره التالي، كرر السائق دعوته،

. هيا لنحتفل .. لنرقص ونغنّ.

مكرهين ومختارين تداعى على ندائه نفر من الركاب .. كان صوته هذه المرة آمراً فيه زمجرة وخشونة من فقد احساسه بالاخرين ولم يعد يخشى منهم شيئاً.

ارتفع صوت الأغنية، لكن احداً لم يستجب الى ما كان يثير في نفسه منها من نشوة او طرب.

وكان اولئك الذين مكثوا في اماكنهم في الجانب الاخر وهم يتابعون خفة حركته وسرعة نشوته، يفكرون ويقولون :

. أي مجنون هذا ليفعل ذلك ؟

وسوى الجنون ذاته فلم يكن لأحد ان يقوم بما يقوم به هذا الرجل الان ، هكذا فكر احمد ناجي بعد ان سحق السائق بقدمه الثقيلة اصابع قدمه اليسرى فانسحب من الجلسة، متوارياً الى الخلف منظماً الى جوار طالب عبد الحق الذي انفرد بعيداً ومن خلفه كانت تضطرب سوسن نوري وسهام حامد التي انسحبت مبكراً من مجلس الرجال.

ومنذ ان بدات الدعوة التي عدها الجميع فارغة لا معنى لها وحتى نهايتها وقد انتهت سريعاً، فان احداً من الذين شاركوا لم يكن يفكر بسوى انك لكي تتجنب ما قد يلحقك منه من شر او اذى قد تدخل مع المجنون في جنونه، سخرية او ضحكاً او لعباً.

وهكذا كانوا وهم يتمايلون، في تجاوب مفتعل مع كل نبرة عاطفة تحركها أغنية ما، يثيرون في الاثنين، السائق ومساعده، ضحكاً متواصلاً.

بيد ان الجميع ان لم يرقصوا، او هم لم يعرفوا الرقص، فلقد كان السائق راقصاً رشيقاً غالب ثمله الثقيل لحظات كان فيها متالقاً تساوقت حركة قدميه مع ايقاع الأغنية تساوق حركات الراقص المحترف.

كانت يده ترتفع مفتولة الى الأعلى او تنخفض رشيقة الى الأسفل، مستجيبة لحركة قدمه، تلك التي تتقدم او تلك التي تتاخر في تناسق مثير كان انفعاله فيه واضحاً جلياً، عبرت عنه ضربات قدميه الثقيلتين على الأرض.

هدأت الزوبعة .. وانفض الجميع .. عاد الرجال الى اماكنهم يجرون خلفهم فراغ صدورهم وافئدتهم ، وبدا ان كل شيء مر او سيمر بسلام بما في ذلك نبوءة الأعمى الساخرة " اليوم خمر وغداً امر" مستلهما قولة الملك الضلّيل، اسفر الصبح عن شيء مروع لم يمر على خيال احد. فلقد ذكر احدهم انه راى شبحاً ينفرد بالأعمى الذي مكث رابضاً على تلته وحيداً، حتى بعد ان انفض المحتفلون واخلد الجميع

للنوم، ويقتاده من مكانه ويسير به نحو نقطة ما، وهناك نسي عندها الموضوع ودخل في النوم ،ذلك ان شيئاً من هذا لم يثر في صدره أي شك، فرفقة الركاب غالباً ماتنشأ أثناء السفر قوية بفعل الحاجة الى الاخرين ثم ما تلبث ان تتوطد او تختفي بحسب المواقف والظروف، ورجل اعمى لاشك يستدر العطف ويثير الحمية في الصدور، واغلب الذين يرافقون العميان هم من اصفيائهم واخلص الناس اليهم: "لقد رايتُ يداً تمتد الى كتف الاعمى، كما لو أنها تدعوه الى شيء، ثم تساعده على الهبوط من تلته وتصطحبه يداًبيد وتتوغل به في عتمة الليل".

لقد نفذت الطعنة القاسية الى قلب الرجل وتركته ينزف دمه حتى الصباح، ثم اذا ما شمت الدم ثعالب او ذئاب نهشت قطعة من الرقبة واخرى من اليد وتركت الجسد، لأمر، على هيئته من دون
ان تنال منه كثيراً.

واغلب الظن ان اليد التي طعنته راودته تارة اخرى لتعرف موته، وعلى اثر ذلك ولت الوحوش هاربة ولم تعد اليه.

وعلى الرغم مما تعرض له الجسد فلقد كان مسجى على الظهر، رفت على وجهه مع الطعنة العميقة غصَة الم، توقفت السيماء النبيلة عليها، ثم استوى مستسلماً لقدره الأخير، بعد ان غيبت الدماء الهادرة قواه تماماً واسلمته لخدر الموت.

اول الباكين عليه واشدهم لوعة كذلك، سهام حامد التي كانت اول من شاهد جثته، فان كانت النساء اول من يبكر في الخروج الى

الخلاء وقبل الرجال، فوراء تلة بعيدة اكتست حتى قمتها العالية بعشب يانع متكاثف وقبل ان تلتفت الى الوراء لتشاهد ان كان احد ينظر اليها او يستقصي خلوتها، صدم قلبها نهر الدم الذي كان ما يزال طرياً لامعاً وقادها الى الجثة العملاقة .. هناك ولم تكن تعرفت الى صاحب الجسد الدامي ،بعدُ، صرخت صرخة رعب مزقت حنجرتها، كان لها ذلك الصدى المدوي الذي ولد في نفسها الماً مبرحاً ظل يلازمها حتى نهايتها، بعد ان مضى السائق يطوف بهم متاهة الصحراء متخبطاً فيها خبط عشواء.

على القمة ذاتها، وبعد ان خيم السكون على الجميع وعقب صخب وهياج شديدين، تم دفن الأعمى. فما ان سمع الجميع صوت المراة ينداح في اذانهم حتى هرعوا نحو مصدر الصوت، وكل حسب سرعته ومطاوعة جسده .. كان طالب عبد الحق اول من وصل، ثم توالى الاخرون تباعاً، ثم اذا تكاملوا ووقفوا على ما حدث، مضى احدهم يفتش في وجه احد عن وقع الحادثة ومن وراءها، وكان السائق ومساعده، وقد وصلا مع من وصل، قد أُخذا بما اخذ به الاخرون في بحثهم عن الجاني في الوجوه التي نتأت عيونها وعلاها الاصفرار.

عقدت الدهشة السنة الركاب واستولى عليهم حزن جارف جعل رؤوسهم تدور في فراغ .. فمن يكون فعل الفعل الأخرق هذا، وما دوافعه، ثم ما معنى ان تاخذ حرب طحون عيني رجل عملاق لتلقي به في مفازة تتناوشه فيها، فضلاً عن سكين بشر، انياب ثعالب او انياب

ذئاب؟ كان صراخ سهام حامد يكثف من وطأة الصدمة التي ادارت الرؤوس، وحتى مرور دقائق طويلة كان صراخها المروع هذا، صراخ امراة فقدت اخاً او عزيزاً طعن من الخلف، ومن بعدها كان زوجها شاكر عبد المجيد ذاوياً ملتاعاً يخفف في جهد ضائع من عناء انفعالها وقوة صدمتها.

. هات المعول، فان تركناه هنا مزقت

جسده الوحوش.

اشار السائق لمساعده في إمرة جافة، خرقت الستر التي كانت تضطرم تحتها عواطف واحزان مما كانت تنوء بها صدور الرجال.

لم تمض ثوان عاد الرجل بعدها حاملاً معولاً جديداً باشط اللسان خرق به الصفوف واطل على جثة الرجل القتيل.

. اية رجولة، بل اية بطولة هذه التي يحملها رجل

يقتل اعمى، خلف تلة وفي وحشة الليل؟

انطلق صوت طالب عبد الحق في وجه الجميع من دون ان يعين احداً، انما لكي يخفي شكوكه اعطى السائق ظهره وتابع:

. بينما يجب في مثل هذه الحالة وعلى مثل

هذه الأرض، ألاّ يحل غير السلام؟

. لولا طعنة السكين، لقلنا افترسته الوحوش.

من تحت عينيه اجاب السائق، موجهاً كلامه الى مساعده ثم ملتفتاً الى الوجوه الأخرى باحثاً عن اصداء كلامه عليها.وحقاً.. كانت

اليد التـي اغتالـت الرجـل بطعنـة واحـدة ابتغـت ان تمهـد السـبيل لوحـوش تمسح أثار طعنتها بما يحتمل ان تفعله من نهش وتقطيع لجسد فارت دماؤه حارة هادرة منذ اللمسة الأولى للسكين.

ومما يلوح من السرعة التي حصل فيها ما حصل ان الوحوش بما أشاعت من اجواء، أغرت القاتل في تنفيذ جريمته ظناً منه انها ستأتي على الجسد كله ، وانها بالتالي ستخفي جريمته.

. ((لا تبالوا .. انها لا تقترب من جماعة على مثل
هذا العدد الذي نحن عليه)).

هكذا يتذكر الركاب ما سمعوه من السائق عند حلول الليل وانتشار اصوات الوحوش.

. ((اطمئنوا. وناموا فباستطاعتنا ان نقتنص
الذئب مثلما نقتنص الشاة)).

بصورة ابلغ، كذلك هتف مساعده، مولداً راحة ما في نفوس بعض الذين أرهقهم سماع الأصوات، ممن كانت إصابتهم بليغة او اعطابهم جسيمة.

في الليل، منتصفه او قبيل ذلك بقليل اخلد الجميع للنوم، على ريح وان كانت جنوبية ثقيلة، إلاّ انها حملت من محيط الصحراء عبق الدغل واريج الأزهار ورائحة الأرض في مزيج غريب، وضع لمسات عذبة على النفوس. وفيما كان نوم ثقيل يهبط على الصدور، كانت خطوات هامسة ولكنها متلاحقة، عززت صحوة من كان وحيداً مسهداً،

ومن خلفها كان صوت مهموس يعلن عن تمام العمل في سهولة ويسر غير متوقعين، اذ ما ان امتدت اليد اليه تساعده على الهبوط من علاه بدعوى المشاركة في امر حتى اقبل مسترسلاً في هبوط وئيد، وانقاد لليد وللمسافة الطويلة التي قطعها في لين تام قبل ان يشعر بوخزة السكين.

ولايدري احد ان كان اخر ثالث غير القاتل والقتيل سمع صرخة الألم، قبل ان يتهاوى الجسد على الأرض. نعم، فمع الوخزة الباردة جداً التي اخترقت الصدر عند مكمن القلب تأوه بحرقة، ورفع يده نحو النقطة ذاتها فامسك باليد التي كانت كل لحظة تدفع بعنف لا يلين، فما لبثت قواه ان انهارت انهيار كتلة صماء، بعد ان تفجر شلال
الدم.

وحتى الصرخة المفجعة التي اطلقتها سهام حامد تحت سفح الرابية الخضراء، ظل ذلك الرجل المسهد يقظاً يتابع بنظر مختلج ما كان يتراءى له من نجوم لبثت حتى اخر لحظات الليل اسيرة حركة الغيوم.

تلك الساعات التي اعقبت منتصف الليل، وقد حجبت الغيوم او كادت، اخر فتحة كانت تتسل منها نجمة او نجمتان، تدثر الرجل بصمت كثيف اطبق على انفاسه واسلمه لحالة من الضعف المزري لم يكن عرفه او سمع به من قبل، فمع وحشة المكان وهدأة الكون المختلط بوجيب الأرض، كان وحده المسؤول عما انطوى عليه صدر هذا الليل من مكاره واسرار.

ومرة بعد اخرى كانت تتعاقب عليه صور النفس المستوحدة،

بل لعل ما منع النوم عن عينيه ليس ما حصل الليلة الماضية وحده ،إنما ما كان يترادف عليه من صور شائهة كانت امه فيها تستل شيئاً من قلبه وتنأى به بعيداً، مستلبة معها جزءاً من امنه ، في اشتباك مبهم ومثير، وفي اشكال وحالات كانت جميعها تقزز نفسه وتبعث فيها رعباً وارتباكاً.

ويستغرب . وهو الذي لم ير من امه من خلال فتحة عينين طريتين بعد، لم يستبينا في فجر موحش، إلاّ ما كان على هيئة هلام واختلاط . ان تعود هذا الليل " امه " او هذه التي ادعاها الحلم امه، وفي صورة كاملة ومجسدة وفي إهاب منفر، تتخاطفها فيه اكف ملوثة عجفاء، في تنازع اشبه ما يكون بتنازع الذئاب.

لمن يا ترى هذه الصورة التي ما انفكت تفرض عليه هيأتها الثقيلة الان وهو في اشد حالاته صحواً ؟ لقد استعرض في حالة نفور هذه المرة صور اللواتي عرفهن واستكان للعيش معهن اياماً وليالي. فلم يجد في ملامحهن شيئاً من ملامح ذلك الهلام البعيد الذي كان امه .. اذن هي صورة . هكذا تسنى له ان يفكر . جمعها له الحلم البغيض ليقتص منه قبل ان يقتص منه واقع ما . لا بد انني غفوت قليلاً .. اخذتني سنة خفيفة من نعاس قاهر، فززت بعدها على تخاطف الخطوات ..

. ارفعوا الجثة 00 ضعوها في القبر.

قال ذلك بنفاد صبر.

طالب عبد الحق اول من اقترح إقامة القبر أعلى التلة .. على قمتها تماماً .. وبين لغط الركاب ودمدمة اعماقهم، ارتفع صوت نديم ضاري مفصحاً عن غضب فضح احتقانَه ، إختلاجُ النبرة واهتزاز ملامح الوجه :

. حقاً لقد خنا الأمانة .. لقد خناها جميعاً ..الأعمى امانة بايدي المبصرين ولقد انشغلنا عنه الى الدرجة التي نمنا فيها " سعداء"، ولم نعرف اليد التي امتدت اليه، وهي منا.. جميعنا اذن قتل الرجل.

عند عبارته الأخيرة دار دورة قصيرة وقفت به عند السائق في مواجهة كادت تكون سافرة، قال :

. من المسؤول عن هذا ؟

وانبرت سوسن نوري قائلة بصوت مرتجف مهزوز :

. ولكن لماذا ؟ وما ذنبه ؟

وانهمرت دموعها التي كفكفتها سريعاً وغادرت موقعها مستاءة.

خلال حركته الدائبة وارتجاف جسده اقترب نديم ضاري من طالب عبد الحق، وكان هذا قد أمسى صامتاً ساكناً تهتز جذوره من دون حركة بادية ومن دون صوت باستثناء ما كان يصدر عنه من أنفاس ثقيلة مكتظة تقطعها بين لحظة وأخرى شهقة خفيفة تكاد تكون غير مسموعة، كشهقة الطفل بعد بكاء متعب مرير.

قطعت سوسن نوري بسؤالها لماذا، ما ذنبه، ما كان السائق قد وطن نفسه عليه ليرد به على هذا النحيف ذي الوجه الثعلبي مقطوع القدم.

تضافرت ايد وأنصاف ايد على رفع الجسد الجبار على شبكة عصي هي في الأصل مجموعة عكازات بعد ان لُف بملاءة بيضاء تبرعت بها سهام حامد محتفظة بازاره الأحمر ليلف به، لا تعلم، جثمانها بعد موتها الوشيك..

القي الرجل في قبر اعده السائق ومساعده عند قمة التلة تكتنفه من كل جانب خضرة يانعة هيفاء، ثم تفرق الجميع كل باتجاه تحيط بهمً الأسئلة الحارة الدافقة، لماذا، ومن اجل أي شيء ؟ ما الربح في هذا والضحية رجل اعمى لم يفعل شيئاً قبيحاً ولم يسبب ضرراً ؟ من قام بالفعل، السائق ام مساعده، واذا لم يفصح المساعد عن طبيعة تحاكي طبيعة السائق تماماً، فهل هو في الحقيقة صورة منه لم تعلن عن شرورها الحقيقية من قبل وهل يمكن ان ينفذ رجل شيئاً كبيراً من دون ان تكون له مع ضحيته علاقة بهذا الحجم ؟

أسئلة كثيرة انبرى الجميع يتداولونها علناً لكن من دون توجيه تهمة مباشرة نحو احد ما، فاذا انصرمت ساعة او ساعتان، تحول الشيء الذي اجهض الصدور من حلم بغيض الى واقع مر لابد من الاقرار به ومواجهته بما يقتضيه واقع الحال، وهكذا انصرفوا مرغمين الى

همهم الرئيس، الهم الذي أكل عقولهم، البحث عن طريق والخلاص من موت مؤكد ربما سيكون موت الأعمى ايسر منه.

كمن يتخلص من شاهد جريمته اعلن السائق عن التهيؤ لمغادرة المكان والبحث عن الطريق المؤدية الى الشارع العام، فيما اوصى مساعده الجميع بضرورة التزود بما امكن من الماء.

أثناء تناول إفطار سريع انفرد به السائق وحده، اذ عزف عنه مساعده وكان الآخرون قد رغبوا عن شيء من هذا، كان الحديث بين الرجلين عن كيفية الاستمرار في البحث ووقود العربة موشك على النفاد ولم يتبق من الوقود الاحتياط إلاّ القليل؟

كان الحديث هذا في حقيقته من قبيل الأحاديث المقطوعة منذ لحظة البدء فيها، اذ كل ما اصبح يتجلى الآن ارض ممتدة لا سبيل إلى الإمساك بطرف منها وقد اطبقت عليها سماء دكناء ظلت تنوء بغيوم عجماء لا تمطر ولا تنزاح.

انتظم الركاب حول العين يشربون ما اتسعت له بطونهم من الماء، ويتزودون مما تيسر لهم ان يتزودوا منه.

رد السائق يجيب على حيرة صاحبه، في اعتراف لا يحلو له ان يمارسه او يقرّ به ..

. المشكلة ليست في كمية الوقود،

بل في الطريق .. كيف نعثر على الطريق ؟

عند ذاك تصبح مشكلة الوقود ايسر مما تظن،

فان لم تجد عربة تاخذ هذا الطريق، فهناك انت ..
اذ ربما عثرت على منفذ راسي يتجه نحو
الطريق العام،عندئذ يكون خلاصنا أمرا أكيدا.

على صمت الرجل، انقطع الحديث، فهو يعلم حق العلم مشقة الوصول الى الطريق العام عبر فتحة في المنعطف صنعتها بعض العربات التي ضاقت باتخاذه حتى اخر نقطة فيه، ذلك ان المنعطف الذي يربط بين نقطتين متباعدتين على الطريق العام يشكل قوساً عظيماً يبتعد ويقترب حسب منحناه، واية نقطة عليه نحو ذلك الطريق تشكل خطراً مخيفاً وعبئاً جسيماً ولو على حامل سيف او راكب جواد.

آثر الرجل الصمت وقطع الحديث تاركا كل شيء الى حينه، وقد لعبت براسه المخاوف والظنون فاطلق هتافه الاخير لاستقلال العربة، فتقافز الجميع كل الى مقعده.

طوال الساعات التي اعقبت اكتشاف جثة الأعمى حتى دخول العربة لم تلتق نظرات طالب عبد الحق ونظرات السائق الا بصورة عابرة، فلقد كان عبد الحق يحرص على ان يكون الأمر كذلك، اما الان فلعل اول ما وقعت عيناه عليه وعبر مرآته هو وجه طالب عبد الحق.

خفض طالب عبد الحق عينيه مبتعداً قدر الامكان عما يولده التقاء النظرات من إثارة للهواجس والشكوك وليمنحه فرصة يتمناها يشمل بها الجميع بنظرة عابرة تسكن كالعادة عند سهام حامد ؛ المراة التي

لازمها بكاؤها الهستيري حتى بعد ان تحركت العربة، وخلفت وراءها التلة التي دفن فيها الأعمى وغدت تسمى ب "تلة" الأعمى.

فلقد اكد بدوي يفد المدينة انه شاهد نقطتي نور خضراوين تنبعثان من قمة التلة ليلاً وتغيبان عند الفجر، اقسم انه شاهد ذلك مراراً عديدة في ليالٍ متتالية، وقد اطلق الناس الذين سمعوا الخبر والبدو الذين اكدوا الحالة اسم تلة الأعمى على التلة تلك ثم شاع الأسم بين سائقي العربات التي تقطع الطريق الى سرمارا ملوحين هم ايضاً للرائح والغادي بالحلف واليمين أنهم شاهدوا الشيء ذاته يلوح ولو من على بعد قصي، وهم يتخذون الطريق العام ،وفسروا الأمر تفسيرات شتى منها ان عيني الأعمى قد عاد البصر اليهما ، وها هما تتوليان مراقبة الطريق.

عند تحرك العربة ، انطلق السائق باديء ذي بدء بهدوء كانما ليفصح عن حالة من الطمانينة يستشعرها ولا يستشعرها غيره، ثم ما عتم ان انطلق بعربته باقصى سرعتها، متوغلاً في المطلق نحو ما كان يلوح له ويلّوح به للاخرين، بانه الطريق المنشود.

لم يكن خافياً على الركاب ، ان السائق هذا من وراء سرعته واتخاذه طريقاً لا شاهدة اليه او عليه ، كان يسعى سعياً مخادعاً الى تغيير الحالة التي لازمتهم ولو بشكل ادنى بعد ان استقلوا العربة وتهيأوا للوضع الجديد.

لقد اخفق في ذلك تماماً، اذ امسى كرسي الأعمى شاغراً بارداً، واختفى صوته الحار وزمجرته الملهمة وباتت ظلال الحادث المروع

تفرض سطوتها على النفوس، فضلاً عما كان يولده البحث المضطرب عن الطريق من مخاوف كانت تزداد وتتكاثف بمرور الدقائق والساعات.

ولربما لم ينشا خوف في نفسٍ مثل الذي بدأ يراودها الان. اذ ليس ثمة من رعب اشد من رعب يسببه سائق متهور يقود جماعة عاطلة ضلت في عماء.

عبر هذا الواقع الكثيف، كانت رغبات وامان تتناسل وتتوالد، ولكن جلّ ماكانت تترغبه ان تعود الطاقة القديمة التي ذهبت دون عودة، لتقتص من رجل ايقن الجميع انه يقودهم الى هلاك بطيء حتى ليتمنى المرء حياله أن يجهز عليه ذئب.

من أقصى العربة صدرصوت يندد باللحظة التي جمعت صاحبه بالعربة وساعة ركوب العربة. لم يكن الصوت قويا . لكنه تسرب الى اذن السائق الذي جمع بين شخصه وبين عربته. فأحس ان شتيمة مقصودة يوجهها اليه رجل عاطل ليس غير.

اوقف عربته والتفت الى الوراء وقال مغضبا:

. من قال هذا الكلام .. نعم ..

ومن له القدرة على ان يمكث هنا

ينتظر ذئبا يذبحه أو ثعلبا يقضم أطرافه.

ساد العربة صمت اخرس.

. ليهبط هذا الذي يندب حظه، الان تماما.

حتى اللحظة التي انتهى كلامه فيها كان الجميع اشد ندباً للحظ وأشد صمتا كذلك، حتى انبرى آخر يحول الكلام الى آخر غيره كان هو ذاته الاكثر اثارة للرعب والقلق !

. ايها الرجال .. ايها الاخوة .. كفاكم نزاعا .. نحن الان في اشد حالات محنتنا .. لنتعاون جميعاً على البحث عن الطريق المنشود حتى ولو كلفنا ذلك السير على الاقدام.

لم يكن الرجل ذاك الاّ ساقاً يمنى تمشي بمحاذاة ساق اخرى من خشب ردئ تبدأ من تحت ابطه الايسر حتى الأرض وقد سقط على وجهه مرتين.

يعرف الركاب ان الذي يجمعهم الآن على الكلمة الواحدة، ويفجر نزاعهم معاً هو الطريق المنشود، وان السائق وقع في خطأين كلاهما أشد قتلاً من الاخر؛ اتخاذ المنعطف طريقا الى سرمارا وفقدان الطريق.

لم يعرف السائق قائل ذلك الكلام وأصر على هبوطه من دون أن يعيّنه:

. ليهبط .. نعم ليهبط.

ثم تابع بعد لحظات شفت عن تروّ واستدراك :

. أو ليصمت.

بينما كانت عيون بعضهم تلتقي بعيون بعض ، واصلوا صمتهم منشدين الى قرار عسير: إن كان الكلام خطأ فالصمت هو الصواب.

اكتفى السائق بما صدر عنه من تهديد حسبه درسا للجميع، لا سيما عندما شاهد رجلا في وسط العربة ينهض من مقعده وقد أعياه الذبول في سفر طويل، ويقول:

. تحرك أخي السائق .. ففي مثل هذا الظرف

يجب ان تجتمع الكلمة.

هكذا تتوفر للجميع فرصة استرداد الانفاس، وان ما فتئت تعكرها عينان ماجنتان مهما حاول صاحبهما ان يجعلهما ودودتين.نحو ما حسبه او ظنه الطريق ذاته الذي سلكه منذ اول انعطافة العربة، واصل السائق انطلاقته وكانت عيناه الخياليتان وهو يواصل السير فيه تتابعان الخطوط الهلامية المتشابكة التي هربت منه، وباتت ترتسم لهما كما يرتسم السراب لعين سبق ان ارتوت بمنظر الماء.

إذن هو التيه الكامل والضلال المطلق .. اعترف لنفسه الزائغة وكتم أنفاسه، وامسك بمقود عربته كما لو انه يستفيق من غفوة طارئة.

ارسل بصره للامام .. لم يكن يقطع صمت الكون الاّ ماكنة هادرة بمفاصل شبه مفككة، تولد حركتها في الطريق على نعومته اهتزازا مبالغا فيه.

لاريب ان خوفا دخل قلبه، وان شعورا بالفرصة الضائعة خامر نفسه، الان خشونة حياته واكتظاظ ماضيه ازاح كل هذا في لحظة

واحدة كان عندها يستيقظ هذه المره على عقد اصابعه تنطوي على المقود، وقدمه تضغط على دواسة الوقود.

ولئن بدأت الغيوم أشد ثقلا واكثر التحاما، فلقد كان يرهف شمه ويسرع في قيادته، في خط واحد ما كان يلوح لاحد انه سوف يحيد عنه.

في حياته موقف مشابه في رحلة صيد قديمة، عندما لاحق غزالا أفلت منه وغيّب عليه معالم الطريق .. فلقد وقف في الصحراء محدّدا نقطة خالف عليها اشارات صديقيه، واتخذها منطلقا له مرددا فاما الحياة وإما الموت.

لكن حدود تلك الصحراء غير حدود هذه، وكمية الوقود غير الكمية المتبقية هذه ، فما ان مضت ساعة عقاربها كانت تتلاحق بسرعة مجنونة، حتى حلت به عجلات عربته عند حدود مدينته التي انطلق منها .. تلك المدينة الغريبة التي غمر نفسه فيها وامضى شبابه ورجولته في ازقتها ومنعطفاتها بعد ان هجر مدينته الاولى.

كانت الشمس دليله الصحيح بعد ان وضع قرصها اللاهب الى يمينه، وعند زاوية من كتفه اليمنى مبرهناً لرفيقيه على انه على صواب دائما.

وابلغ ضحكته كانت عندما لاحت رسوم مدينته .. عندها توقف واطلقها مجنونة مدوية وقذف في الفضاء بقربة الماء التي احتفظ بها ولم يسمح لاحد الآبقطرات منها.

على منظر الماء وهو يسيل من فوهتها لبثت نظراته سعيدة متباهية تتجلى فيها صورة نفسه المأخوذ بها.

"الرجل الذي يخالفني يخسر" قال اخيرا ومضى بعربته وئيدا، رصيناً مثل بطل فاتح، يدخل مدينته مزهوا.

تلك كانت أولى مغامراته الكثيرة، وكانت نهجه الى غيرها من مغامرات انتجت رهانه على المواقف الصعبة والزهد في نتائج الامور، وهاهي يدا صديقيه تربتان على كتفيه، وصوتاهما يداعبانه ويدعيان:

"والله ماشككنا لحظة بأنك ستقودنا الى درب النجاة".

أخرج يده من فتحة شباكه، وعاد بها مضمومة الى انفه متشمما في قبضتها مقدار ماانتشر من رطوبة في الجو، عند ئذ وقد أدرك ان المطر وشيك أعطى لعربته اقصى ماتستطيع ان تبلغه من سرعة عربة مثلها وعلى مدى عمره كله.

مع مطر خفيف بدأ يرشق صفحة الزجاج الامامية، أنشأ الركاب يتململون ويتهامسون وقد شعروا بصورة لا يرقى اليها شك ان ما يحيط بهم ان هو الاّ قدر غاشم اسلمهم الى رجل مجنون.

على ثقلها مضت العربة تقطع الطريق غير عابئة بما جعل الأرض أكثر زلقاً وأكثر خطرا.. اما وقد اصبحت تعوم وتنحرف عن خط سيرها قليلا او كثيرا، صار الاعلان عن الغضب أبلغ منه في أي وقت مضى.

كان يبدو للسائق ان المطر الخفيف قد يؤكد أو يعلن عن اثار العجلات التي قطعت او حاولت قطع هذا الطريق، وعليه فانه لكي يتبين علامة من هذا حثّ مساعدة على الانتباه ومشاركته الاستدلال على معالم تلك الاثار.

لم يتضح له او لمساعده أي اثر لعجلة، الامر الذي اوقد في نفسه نوعا من اليقين المزعج بانه قد ابتعد كثيرا عما ينبغي ان يسير عليه، وان الامر صار جديا اذ اصبح متعلقا بحياته هو ذاته.

مع تداعياته المزعجة هذه صدر صوت نديم ضاري حادا منطلقا في علانية سافرة ومن دون مواربة:

. انت تهلكنا ياهذا .. كفانا صمتا، وكفاك تماديا.

اوقف عربتك اللعينة هذه، ولاتغامر عبثا بما

تبقى فيها من وقود وبالتالي بحياتنا..

اهتزت جذوره.. فها هي المرة الاولى التي تلتقي عليه الحقيقتان، حقيقة الداخل وحقيقة الخارج .. المرة والمذلة .. الخفية والسافرة، والمرة الاولى التي يمتحن صبره وطاقته صوت بهذه العلانية يلزمه اتخاذ الصمت والسيطرة على لسان ذرب أمكنة وفي مناسبات عديدة ان يقذف بكل ما يتراكم على طرفه من كلام حتى لو كان بذيئاً 0

القى نظرة دفينة على مصدر الصوت .. انه هو ذو الوجه الثعلبي الصامت الذي كلما عكسته المرآة عكست له، كما لو في سحر ساحر، نوازع الثعلب وخفاياه.

أوقف عربته ولم يحر جوابا .. وساءه ان تمسي نفسه رخوة هشة لا تستطيع ان تمتنع عن أي شيء يفد اليها محزنا ام سارا وفي اطار بلبلة كانت تؤكدها كل لحظة هذه المتاهة الصماء.

تحسس مسدسه .. فقد غرقت بعض مساحات متطامنة من الارض وتشوشت الرؤية، ومانفك الافق يزداد كثافة وادلهاماً، ولازالت نظرته منغرزة في ذلك الذي مابرح هو الاخر يغرز نظراته في الصورة الصغيرة التي تعكسها المرآة امامه.

توقفت العربة عند نقطة من الطريق تتوسط تلتين تتقدم التي على اليمين أختها التي على اليسار قليلا، يرشقهما المطر المائل فتقذفان سيولهما الطينية لتمتصّ الارض منه ماتمتصّ ثم ليركد الفائض تحت العربة على هيئة برك صغيرة تكبر كل حين.

أدرك الركاب ان توقف العربة لم يكن خضوعا لمشيئة نديم ضاري بقدر ما كان استسلاما لمطر عجزت ان تلاحقه ماسحة الزجاج، جعل من الأرض كتلة زلقة يشكل السير عليها مغامرة كبيرة.

وإذ تولد احساس جديد وقوي بان السائق فقد السيطرة على عربته هذه المرة مثلما فقد من قبلها السيطرة على الطريق، التفت هذا التفاتة ثعلبية وقال:

. اذن نحن في الاتجاه الصحيح، فلقد كانت هاتان التلتان الدليل الذي يستدل به سائقو العربات على سلامة اتخاذهم طريق الصحراء، ذلك انه لابد من

ان تمر من خلالهما العربات الى سرمارا.

قطع حديثه ودقق النظر في التلتين:

. وليكن واضحا لديكم اننا نقترب من النقطة

التي تلتقي بالطريق العام.

وسواء أيقظ كلامه هذا في نفوس أصحاب العلل الشديدة أملا راود صبرهم العاطب مراودة القشة عيني غريق، أم أكد في نفوس آخرين القناعة بانه صورة من الخديعة والتضليل، فأن أحدا من هؤلاء لم يكن ليستطيع ان يقطع بان الرجل كان أو لم يكن يراوده أمل في مغامرة كهذه وبهذه الجسامة من سوء التقدير.

على ان الامر ان كان كذلك فقد كان كذلك على من يتحدث في صلب الموضوع مع راكب آخر او يعلن رأيه الصريح فيه، ان يتعرف موطىء كلامه وان يتحسس مقدار مايصدقه فيه او يكذبه. ومن هنا فقد كان عسيرا على طالب عبد الحق ان يتحدث في الموضوع مع احمد نجم او شاكر عبد المجيد مثلما يتحدث مع نديم ضاري او مثلما كان يتحدث مع الاعمى او سليم ناصر .. إنما اشد حزنه كان ان يجد هناك هذه الهشاشة التي اعترت بعض النفوس لتفرح وتحزن في اللحظة الواحدة، ومن دون أن ترتبط بقناعة ما.

اما ذلك الرجل "الحديدي" الذي فقد من جسده عضوين متعاكسين استعان على فقدانهما بالحديد، فان الحديث معه ينبىء عن مغامرة. اذ على الرغم من خسارته ساقا في اليمين وذراعا في اليسار،

فلقد كان الطريق الى مدينة "الشوارع المضيئة" هدفه الاسمى مهما كان نوع ذلك الطريق، ومهما كانت درجة المشقة فيه. ولم تراوده حتى لحظات السائق الاخيرة وقبل موته هو اية شكوك في درجة صدق الرجل وامانته:

انا سالم داود ، فقدت ساقا وذراعاً فاصبحت نصف آدمي ، فمن يمنعني من التعلق بمن يلقي بي في مدينة الحلم الاخضر لاسترجع نصفي المفقود؟ هكذا يكرر وغرارة الشبان الطيبين تتراقص على محياه..

ويضيف:

أي رجل، أي سائق يوصلني الى سرمارا .. مدينة الساحات والمهرجانات يكون أبي .. أمحضه قناعتي ويقيني .. علمتني الحرب ان الموت آخر مايحدث للانسان، ولكي يكون الامر كذلك علي ان استرجع نصفي المفقود .. يجب ان اعيش طويلا .. لقد ذهب كل شيء بغيض ويجب ان تكون الايام القادمة سعيدة وهانئة ..

وسالم داود هذا مهندس معماري ، يكتب الشعر ويتعلق بالاحلام .. مزقه لغم اذ قطع ذراعاً من جهة وساقا من جهة. كتب ديوانه الاول اثناء المعارك التي كان يخوضها، مكرسا كلماته لفكرة الحب التي كان

يعيشها .. كان عاشقا، وقد رفض الزواج من المراة التى انتظرته طالما لم يكن مؤهلا جسديا، فهناك في سرمارا حينما يتكامل سيعود اليها.

وطوال الرحلة لم يخالط احدا ولم يسمع صوته الا هذه المرة التى عبر فيها عن نفسه افصح تعبير، ولانه من اكثر أفراد الرحلة عوقا، فقد جعل الجميع ينظرون اليه بعطف ويقدرون احلامه.

هبط السائق من عربته إثر توقف مفاجئ للمطر .. وهبط مساعده .. ثم تلاهما نفر من الركاب . لقد امتصت الأرض سيول المطر .. وتجلت بادية للعيان بامتدادها السرمدي المتاخم للافاق ..

بين هاتين التلتين المتقابلتين تراءت له نفسه بجلاء اكثر مما تراءت له هيئته امام مرآة. تجلى له الصدق ومقابله الكذب، الحقيقة ومقابلها الادعاء .. الشرف والخسة .. الأمانة والخديعة، و انطوى صدره على الم شعر ان الفضاء الواسع لا يستوعبه، لكنه مثل ذئب يقع في الفخ، جعل يستلهم مما يحيط به فجوة صغيرة ينفذ منها الى خلاص .. أي خلاص.

اثناء تجوال ملتاع محدود وضيق الدائرة، كان لابد منه لمن في وضع هؤلاء التقى طالب عبد الحق نديم ضاري .. وكما لو ان احدهما يعرف الآخر او يبحث عنه افصحا عن المحنة التي تحيط بهم. وليس بناء على ما لمسه احدهما في الآخر اثناء دفن الأعمى او بعده، تم اللقاء بينهما حسب، إنما كذلك وفق ما استشفه الأول في الثاني من

سمات داخلية كانت تفصح عن نفسها ولكن لايستطيع قراءتها الا الرجال الشجعان .

قال :

ـ يا هذا.. اسمك طالب عبد الحق؟ (في الصحراء هل تتخلق للمحبين المعرفة الروحانية وتتبلور شفافية النفس ؟) الرجل يخدعنا .. يخدعنا ويضللنا .. وهو كما ترى ماكر لعوب، فلا هاتان التلتان ، ولا هذه

الأرض دليل أحد إلى سرمارا.. الطريق إلى

سرمارا ذلك الذي تسلكه عربات الناس

جميعاً.. وما كلامه هذا ، الا حديث وهم وبطلان.

رد طالب عبد الحق :

ـ يا نديم ضاري .. كل ما قلته صحيح ..

ولكن ما الحل، وما هو السبيل ؟

ـ حقاً ليس أسهل منه وليس اصعب.

ـ لقد فهمت .. ولكن، والطريق، والدليل الى الشارع العام.. والوقود؟

ـ سيكون لهذا حديثه الخاص. المهم ان لا نتركه يتخبط بنا في هذا الفراغ المطلق خبط عشواء.

. معك في هذا ، ولكن ما سلاحنا ..

ما قوتنا ، ونحن كما ترى بين مقطوع

ساق ومقطوع ذراع ، فنحن اذن

انصاف رجال و انصاف شجعان ؟

يرتجف نديم ضاري .. تهتز اطرافه الطويلة وترتجف شفتاه ، ولولا السكون الذي كان يعمر جسد طالب عبد الحق لانقلب الامر الى ضده قبل ان يتسلل اليهما مساعد السائق في حركة جهد ان لا تكون مقصودة .

تحت مراقبة السائق جرى الحديث، وهو إن لم يكن يحمل في نفسه كرهاً واضحاً لطالب عبد الحق، فانه لا ينكر امتعاضه من صورة نديم ضاري التي لا يعرف كيف تذكره بصورة ثعلب جائع يحاول الانقضاض، ويداري ذلك، على خصم اكبر منه حجماً واقوى كذلك.

في التفاتة قصيرة شاهد الاثنان الرجل يقترب منهما متشاغلاً باقتلاع ساق شجيرة جفت قبل اوانها.

لم يسمع المساعد ما تحدث فيه الرجلان قبل ان يغيرا حديثهما الى موضوع تناولا فيه موقعهم من الصحراء واين يقع الطريق العام، وهو موضوع جرى الحديث عنه من الجميع ، بل انه حاول ان يشاركهما هذا الحديث الذي يسمعه الان لما وقع منه في نفسه موقع الصدق الذي لاشك فيه.

بعد انصرافه الى معالجة حكة شديدة ظهرت حديثاً على هيئة بثور حمر على ذراعيه، التحم بالرجلين، كذلك ليثبت لصاحبه اخلاصه له وصدق ايمانه بما كلفه به.

. نعم .. صار من المناسب ان نواصل البحث

فالسماء اضحت صحواً والريح شمالية.

هكذا واصل ما انقطع من حديث الرجلين .

. تماماً ، ولكن ما الذي يراه صاحبك فيما

يتعلق بالاتجاه الذي يسير فيه .

. اعتقد اننا نسير في الاتجاه الصحيح والا ..

. والا ماذا .. الكارثة؟

ربت على كتف نديم ضاري الذي وجده منفعلاً متعجلاً معرفة الحقيقة، عكس صاحبه الذي امتص هدوؤه اية بذرة شك فيه ولا سيما بعد ان قال :

. لاشك في اننا سنجد الطريق الذي يقودنا

الى الشارع العام ..

انقطع الحديث، فلقد شعر الرجل على بساطة عقله و تفكيره بانه في النهاية طارئ غير مقبول، وانه وان لم يحمل في حناياه كرهاً لأي من الرجلين، فان تصاعد الحكة في ذراعيه والحرارة المسعورة فيهما جعلته يرى كل شيء عارضاً يتمنى زواله حتى لو كانت نفسه.

غادر الرجل موقعه ليخيب مبتغى السائق الامساك ولو بطرف من حديث الرجلين .. فلقد اصبح الحديث الذي تلهج به السنة الجميع ما السبيل الى النجاة .. هل نحن في الاتجاه الصحيح .. السائق هل ما يزال حتى هذه اللحظة يضللنا .. رجل مغامر كذوب .. اية مصادفة فاحشة، جمعتنا واياه 00 موتنا كيف سيكون، وعلى الأرض الهشة التي اغتسلت بماء المطر انشأ هؤلاء يتقافزون ويتحدثون في هذه الدوامة من الأسئلة المغلقة وفوقهم تناثرت في الفضاء الرحب كواسر الطير.

امام نديم ضاري بدأ طالب عبد الحق يفك اسراره عقدة عقدة، بهذه السكين التي ترقد بين لحمي وجلدي ساحتز رقبته او اثقب قلبه .. تماماً مثلما فعل بصالح الاعمى .. لقد اعتدى هذا الفاسق الفظ على رجولتنا ولوث انفاسنا، ولم يترك للشائنة مجالاً الا وطرقه، ولا منفذاً الا نفذ من خلاله .. هاهو يقتلنا جميعاً على مراى من عيوننا ومسمع من اذاننا .. أي رجال نحن اذن ؟ صحيح اننا فقدنا ما فقدنا ، ولكن هل فقدنا ارادتنا في الحياة، وهل ماتت ضمائرنا ليستبيح هذا رجولتنا ؟ لا يانديم .. اترك الموضوع لي فانا كفيل به وانا الذي يفور ويغلي .. لا اطلب منك الا معاونة ما، اذا حاول آخرون الوقوف بوجهي .. اعلم ان لا احد سيدافع عنه الا معاونه، والا ذلك العاشق البريء مهندس المباني الذي لايدفع شراً ولا يجلب نفعاً .. اما الآخرون..

تنفس بعمق، ملاحقاً بنظر غائم مكتظ، انعكاس قراره على وجه نديم ضاري الذي تلألأت نظراته وانطلقت ملامحه حتى لم يعد يتبين

منها سوى خطوطها النبيلة الطيبة. فلاول مرة يفجر دملة قلبه رجل بهذه الجسامة من الشعور بالحيف، وبهذا القدر من التصميم .. رجل ذو جسد بارد ودم حار.

. ما كان ينقصني غير هذا .. اعطني السكين وسانقض عليه امام الجميع.

وضع عبد الحق يده في صدر صاحبه المتقدم نحوه يثنيه ويحيله الى الهدوء ليوالي حديثه دافقا ؛ انه يقتلنا.. ابن الفاحشة.. إنظر اليهم يهيمون في البرية يلتقطون النبت بعد ان نفد الطعام.. وثق انني لم اذق طعماً لزاد، ليس لنفاده بل لمرارة طعمها في فمي اشد من مرارة الحنظل.. لقد علمتني التجربة على صغر سني ان اصوم عند الغضب، لذا تراني صائما، منذ قطعت قدمي.. لقد بترتها الكريهة يا سيدي.. لقد فعلت بي مثلما فعلت بك وبهؤلاء جميعاً وما انكى ان يظل سليماً من يستحق الموت..

اشارنحو السائق اشارة خفيفة وسكت يستروح انفاساً عميقة ليقول بعد مراجعة في التفكير.

. اصدقني يا طالب ، ما الذي تحت يدك وما يدور في راسك ؟

واسعة ومختلطة نفذت اليه نظرة عبد الحق، واستقرت على عينيه في سمة من سمات التحدي الصعب والاختبار الشاق، واستل من

تحت قميصه سكيناً حادة كان التماعها كافياً لتبث في نفسه اختلاجاً عظيماً ..

. من اين لك هذه ؟

اجاب وهو لا يزال يعطي السائق ظهره من دون ان يعلم انه دخل عربته :

. سرقتها من المطعم .. ولاتسل كيف.

توقف نديم ضاري عن الحركة، فعلى الرغم من انه سبق ان عرف مثل هؤلاء من الرجال، الا ان ما يستوقفه الان هذه الصور الخاصة لرجل على مثل هذا القدر من العزيمة والتصميم ..

لم يقل شيئاً ،بل لبث يصغي لاضطراب انفاسه واحتدام مشاعره.

. الطريق اليه سهل .. لا اسهل منه .. ان
تنعطف نحوه بغتة، وتغرز سكينك فيه،
او تنتظر خلوة من خلواته او غفلة من غفلا ته،
فما هذا الجسد العظيم الا حفنة عروق دقيقة
يسري فيها سائل احمراسمه دم.

تابع :

ـ وهؤلاء المساكين سيكونون الى جانبك .. الأبتر

والأعرج والأعور .. سينزعون قشرة الخوف،
وسترى ما يكمن خلفهم من رجال.

كانت السكين ما تزال بين قبضة اصابعه، وكان ما يزال متهدج الصوت تحت انفعال دفين التواتر حتى لكانه الجبل قبل البركان.. قال نديم ضاري، ليجعل الموضوع اكثرحكمة واشد احكاماً:

. الا ترى ما قد يؤول اليه خطأ السكين؟

- في حالات تكون السكين أمضى حين تقصد القلب او الرقبة.. شرط ان تكون بيد ثابتة وفي تصميم وعزم صادقين.. لن اتقابل معه، بل لن يسمع مني سوى نصل بارد يخترق كالشعاع شغاف قلبه، يفتح عينيه عليه في شهقة واحدة لن يرى معها سوى أطياف بعيدة من مثل بقرة مصروعة في جانب من الطريق، امراة هاربة مثل سراب، أعمى ممزق

القلب منتهك الأطراف.. رجال خرس منكسي الرؤوس محتدمي الصدور.. صور تمر عليه كستائر الأحلام، مضببة تارة، منورة تارة، وفي دفقات متراتبة لا يد له فيها ولا حول، ثم يبرد الجسد.. شيئاً فشيئاً يبرد الجسد، وينتهي كل شيء ..

. اعطنيها ، فأنا كفيل به.. وسأكفيكه، فأنت لا تملك غير شمال.

رد بحزم :

. ستفي بالغرض .. لقد دربتها منذ ان فقدت أختها،

جعلتها تفي بالغرض المطلوب في اعمال كثيرة،
من بينها القلم والسكين، ولن يكون امامي عمل شاق..

سحب علبة سجائره.. قدم لنديم ضاري الذي اعتذر،ثم استل بأسنانه البيض واحدة بعد ان انتأها بباطن إبهامه،وطارد دخانها اللذيذ لحظة كان خلالها يميل إلى هدوء عميق،كذلك الذي يولده نداء غابة قصية او صوت مكتوم من باطن الأرض،او ترجيع في مدى بعيد،كذلك الذي يتولد في النفس المحتدمة،لحظة الغضب المر، او الفرح العظيم،لحظة امتلاك الشيء الصعب بعد مطاردة وعناء..بعد ذلك الصمت الكثيف قال:

. ستكون انت يدي اليمنى.. نديم ضاري
الذي أعرفك الآن كما اعرف نفسي..

نهض في الفضاء صوت مساعد السائق ناهشاً يداً بيد وقد تفجرت البثور الحمر على ذراعيه عن سائل كثيف اصفر لامع مائل إلى الخضرة الفاتحة، يدعو إلى معاودة استقلال العربة فلا تزال كمية الوقود المتبقية كافية لقطع مسافة اخرى ولا يزال الامل قوياً في العثور على الطريق.

اخترقت العربة الطريق بين التلتين بصعوبة لما تجمع من ماء لبث راكداً على هيئة برك صغيرة ثم انطلقت وئيداً وئيداً بين حركة راسخة وأخرى مترجحة هائمة حتى استوى لها الامر ومضت صعدا يتجاوب انينها مع انين بدأ يرتفع خافتاً من مكان ما وسطها.

إنها سهام حامد...المرأة الرقيقة، ذات القوام الأهيف، التي يكسبها ثوبها المنقط المسترسل جمال ربات الأساطير، التي تئن هذا الأنين الحيي .

توقف السائق عن المضي في السير، ولم ينصرم على انطلاقه أكثر من ساعة واحدة، والتفت التفاتة موغلة في التأثر وقال:

. ما الأمر؟

لم يحظ بجواب، إذ لم يكن أحد يعلم ما الشيء الذي بدأت تتأوه منه سهام حامد ويواسيها فيه زوجها.

اشتد الأنين... كان أنينا موجعاً متكتما، كذلك الذي يخشى صاحبه أن يفضح به عن نفسه أمراً نكرا.

بين كلام هامس من زوجها، وأنين صار يعلو ويهبط كل آن، هرعت سوسن نوري يتبعها زوجها أحمد نجم، يستطلعان الأمر، وقد بدا أنهما الوحيدان اللذان يحق لهما قبل غيرهما معرفة الشيء الذي تئن تحت وطأته المرأة.

اضطر الركاب إلى الهبوط، إذ انتشر الخبر ولم يعد كتمانه أمراً ممكناً.

وسوى المرأة وزوجها، وسوسن نوري، فلم يمكث في جوف العربة راكب آخر غير أحمد نجم الذي جلس عند فتحة الباب؛ ظهره إلى الثلاثة ووجهه إلى الفضاء، وكأنه يستدعي من ذلك العمق اللامتناهي رحمة ما.

عند اشتداد الأنين وقد صار بميسور المرأة ان تعبر عن ألمها بكامل طاقتها، تحول الهمس إلى كلام صريح: المرأة حامل في شهرها الرابع تعاني من نزف بدأ يأخذها مصحوباً بالام مبرحة في منطقتي البطن والظهر.

. من منكم يحمل مسكناً أو علاجاً لوقف النزف؟

طوق الجميع ذهول شل أعصابهم كانوا خلاله يؤمنون بأن ما يجري لهم إن هو ألا من قبيل الأقدار السود، إذ من ،ترى، قبلهم حسب حساباً أو دار بخلده أن يحسب حساباً لمثل هذا الذي يجري الان؟

كل ما امتدت به الأيدي كان علاجاً للصداع أو مسكناً للرشح ولا شئ غير... لقد انقضى عهد الأدوية المركزة، فلقد تيبست الدماء والتأمت الجروح على خطأ وصواب وانتهت العظام إلى ما انتهت اليه، وتحجر كل شئ.

إزاء النزف الذي كلما مضى الوقت اشتد وعسر، كانت اشد معاناة بعد معاناة المرأة معاناة زوجها شاكر عبد المجيد، الذي استولى عليه ما يشبه الجنون المطبق، وهو يسرع إليها بما هو متاح من هذه الادوية، او يهبط العربة نحو الركاب يبحث في الوجوه المغلقة على آلامها وصمتها، عن حل لزوجته وان كان مستحيلاً:

. اخوتي...ابحثوا في جيوبكم، في حقائبكم عن
علاج يوقف النزف. هيا، اخوتي، ابحثوا
عما يوقف النزيف، امرأتي، زوجتي تموت...

من غير تدقيق يتلقف حبات الصداع ثم يهبط مسرعاً:

. طالب عبد الحق... نديم ضاري... سالم داود

صادق عبد الحميد... محمود أحمد... عبد الجبار

أنت يا عبد الجبار، فتشتَ حقيبتك ...ألم تكن مضمداً؟

أول مرة يتداخل هم خاص مع هم الخروج من هذا العماء... بل لقد استحوذ موضوع المرأة على أفكار الجميع، إذ لا زالوا أحياء حتى الان، وباتوا أمام دموع شاكر عبد المجيد وصراخ سوسن شكري التي شاركت رفيقتها المها ولوعتها، لايفكرون إلا بالموضوع الماثل أمامهم كما لو انه موضوعهم الوحيد.

كانت سوسن نوري تصرخ صراخاً حاداً وقد وجدت ان لا شئ لديها لمشاركة المرأة المحتضرة سوى هذا العويل، فلقد شحب لون سهام حامد وانتهى صراخها الموجع إلى أنين خافت، وضعفت حركة أنفاسها، و استكانت إلى شئ باتت تعرفه، ولم تعد لديها قوة لدفعه أو النفاذ منه، كان جسدها يذبل ويذوي وينز عرقاً غامراً، كانت تشعر عليه ببرد جارف ينسل اليها من بين أغطية دثرها بها زوجها وسوسن نوري.

أمام كل هذا كان السائق قد ابتعد منفرداً بمساعدة يعدّ خلف ربوة مسدسه.

فبعد أن أيقن أن أية محاولة للمشاركة في إنقاذ المرأة من موتها القريب ليست سوى جهد ضائع، اعتزل موقعه كالعادة وجعل يستنتج ما

قد ينجم عنه وضع مثل هذا قد يحمله الركاب فيه مسؤوليته كاملة وقد يتألبون عليه.

في غمرة اللقاء هذا الذي استشعره اكثر اللقاءات مصيراً وحاجة فاتح السائق مساعده، وكان أرجأ موضوع إرساله لتقصي آثار العجلات التي سلكت طريق الصحراء:

. يا صديقي إن هؤلاء قد يتألبون علينا.

فان لم يكونوا كذلك بالامس فها هم

اليوم او غدا،وعليه فانني أدعوك لمراقبة

الموقف..يعني إن تفتح عينيك .. ومع علمي

بأنهم لن يستطيعوا شيئاً فان المثل يقول، لكي

تواجه الثعلب عليك أن تحتزم له بحزام الأسد...

ماذا تقول؟

. ...

. وستكون مراقبتهم أولى مهامنا.

. نعم... تماماً.

. انظر.

. ماذا؟

. أترى أحدا منهم يملك سلاحا؟

رد الرجل معترفاً بصعوبة معرفة ما قد يخبئ تحت ملابسه، هذا او ذاك من سلاح:

. لا اعلم شيئاً... ولا أظن ... وكن مطمئناً

من هذه الناحية في الأقل.

. وما الناحية الأخرى؟

استغرب تباله صاحبه، بيد انه ما لبث أن استعاد سريعاً صور مراوغته ومكره، في مواقف صعبة سابقة...

. لا شئ... لاشيء...

. قل يا أخي ... ولاتتردد. انني استمع اليك.

. هؤلاء يريدون الطريق ولا شيء آخر.

. ونحن الا نريد الطريق ... السنا نبحث عنه؟

ولولا وضع المرأة المفاجئ لأرسلتك من هذه النقطة تستطلع ذلك.

اغتم الرجل أول لحظة اخبره فيها بقراره هذا، غير انه الان ليس اكثر منه قبل ذلك. ذلك انه ان كان لديه قبل يوم امل في عثور العربة على طريق مطروق فانه الان في ياس تام. ثم اذا كانت ثمة صعوبات تواجه طارق هذا الطريق، فليس ذلك بأصعب من الانتظار هنا ترقباً لموت وشيك... انه يعرف صاحبه، عاشق مغامرات، وانه لرجل مداخل صعبة وشائكة، إلا أن ما بدأ يظهر له الان منه، انه اقرب إلى الضعف المزري، لاسيما إن الخلاص مما يحيط به قد استغلق عليه

تماماً وأذهله عن إثبات أي عمل يشهد على توقد في الذهن، غير هذا البحث العشوائي الذي لم يسفر ألا عن ضياع الوقت ونفاد الوقود.

. ما الذي يشغل ذهنك؟

. آه... أشياء كثيرة.

ولم يقل شيئاً أخر، إنما أطلق زفرة عنيفة تعبيراً عن ألم فشل في أن يكتم سره.. المرأة التي رغب فيها رغبة جنونية... موتها القادم سريعاً...الضلال في الصحراء...هؤلاء الذين لم يأتمن جانبهم على قلة حيلتهم وضعف حولهم... المزيد مما هو مجهول ويطبق على الأنفاس... المرأة الغريبة التي داهمته الليلة الماضية ولا تزال تقتص منه في موجات من الظهور والغياب... الليل الذي أمسى يفجر في روحه الاسى والخوف بعد ان كان سبيله إلى تحقيق ملذاته وسعادته.. صور شتى من الماضي القريب والبعيد تكثف صدأ نفسه وتعقد مرارة فمه...

وها هي ساعات العصر تدنو، لتدنو معها صور الوحشة وضيق النفس.. ظلال العصر تدنو بالليل، بالمراة التي يتناهشها رجال كالذؤبان.. ويرتجف جسده يكاد يطلقها صرخة لو فعل لرددت صداها الافاق، ويعلو صوت سوسن نوري وشاكر عبد المجيد، المرأة تموت... سهام حامد تموت، وصوت آخر يجهش بالبكاء، لا شك انه صوت أحمد نجم اقرب الرجال إلى المرأة بعد زوجها، ويهرع من يهرع، يدلف إلى العربة ليعود محملاً بحزنه وأساه... لقد انهارت قوى المرأة تماماً بعد

ساعات متواصلة من فيض دموي لا يقاوم وآلام قاطعة دفعت بالجسد الواهن الذي آمن أخيرا بقدره أن يلفظ آخر حركة فيه ليهمد جميلاً مستسلما تعاونت أيدي شاكر عبد المجيد وسوسن نوري وأحمد نجم واخرين على حمله والهبوط به إلى الأرض... لقد ذابت المرأة كما يذوب الحلم، فكان شهيق شاكر عبد المجيد ابلغ صورة للوعة رجل على امرأة شاهدها بشر من هؤلاء، لقد اجتمع الركاب، والسائق ومساعده معهم، على أمر واحد هذه المرة، هو الشعور بالفجيعة، فلقد ماتت من أثارت في الرجال دون استثناء وفي صمت عميق، حب المرأة وتقديس الجمال، بل أنها لطلاقة روحها وسماحة محياها طمعّت فيها من كان لا يحمل في ثناياه عن المرأة ألا جسداً فقط، فلقد قبلت وزوجها دعوة السائق لتناول العشاء ومشاركته ضحكه وقبول بعض ملاحظاته كما يتقبل الفضاء الرحب بعض نسائم ملوثة من دون ان يغير طبيعته او فحواه.. كان كل أملها أن تشارك زوجها فرحه بساق جديدة تخفي تصدّع حركته واتزانه وتخفف من شعوره بنقصه.. كانت كالطفل، كالطائر جلّ ما يبتغيه ان يلقى فضاءه نقياً وواسعاً... ألم تكن ((سرمارا))، في نظرها، كذلك قبل ان تبدأ تقلصات بطنها بُعيد ان رأت جثة الأعمى؟ نعم كانت كأولئك النساء الحريريات اللواتي تحار في تقدير مواضع الخطأ والصواب في ترفهن المثير، فاذ يغريك الملمس شكمتك متانة النسيج...

ماتت سهام حامد، ولم تترك وراءها الا حسرات تمجد طهارة النفس وتقدس الجمال، ومثلما اجتمعوا على دفن الاعمى، اجتمعوا على

دفن المرأة التي لفت بازار أحمر من مخلفات الأعمى كانت احتفظت به؛ نوعاً من الذكرى.

وبموتها انضم إلى الجهة الأخرى... الجهة التي تحمل في أحشائها فكرة الانتقام والصدق في التصميم، عنصراً جديداً...كان شاكر عبد المجيد من أولئك الرجال الذين عاشوا حياة هادئة هانئة، اتسمت بترف النعمة المستقرة، لكن حرب مدينته بما جرته عليه من ويلات طبعته بطابع انفعالي، ولكنه غالباً ما كان عابراً وينجم عنه، في النهاية، أسف شديد...

بيد أن اندفاعه، نحو السائق، هذه المرة كان اندفاعاً سريعاً وصادقاً، ولم يكن يحمل في طيا ته سوى أسف انه لم يستطع أن يلتقط الرقبة الغليظة بإصابع أمست لها صلابة الحديد.

. أيها النذل... لقد سلبتني اعز ما املك

وآخر من استعين به واعتمد عليه.

وكان قد تدافع نحوه نديم ضاري واحمد نجم وطالب عبد الحق يمنعونه ويحمونه من رجل كان تدرع بسلاحه قبل أن يفكر هذا بالانقضاض عليه.

لقد تعاون من تعاون على نقل الجسد الهامد الذي غادرته تلك الحيوية الطافحة التي كانت مثاراً للهواجس والأحاسيس، وهبطوا به نحو الحفرة المستطيلة التي أعدت له، وواروه التراب، حتى إذا مضى كل شئ

هادئاً مفعماً بالحزن تولد الإحساس بان ما سيقدم من ساعات قد ينذر بما يهدد حياة الجميع.

اعتزل السائق ومساعده، الذي تزايد انتشار البثور على جسده حتى استكانت على جبهته وظاهر عنقه، مكاناً خاصاً يتشاوران فيه، واعتزل الآخرون ثللاً متفرقة لا يفقه أحد ما ينوس بخلد الآخر أو ما سوف يحدثه به او يقدم عليه، لقد التمت الصدور على حزنها الثقيل وخوفها ألمستفحل ويأسها الذي لا منفذ منه، وصار من غيرالمجدي أن يكرر الرجل ما كره سماعه من قرينه قبل دقائق أو ساعات، بل أن اغلبهم لما بات يهدد أجسادهم من وهن وجوع، ارتهنوا لقرار السائق واستسلموا لمشيئة، ربما كان من دواعي الانصياع لها، أن البحث عن منفذ خير من الانتظار في نقطة واحدة لا رجاء فيها.

ألقي الجميع نظرة وداع عجلى على القبر المنبسط بعد أن أطلق السائق دعوته إلى ركوب العربة والاستعداد للبحث كرة أخرى عن الطريق المنشود.

آخر ملبي الدعوة كان شاكر عبد المجيد الذي مكث يناجي زوجه بما يشبه هذيان المحموم، ولو لم يكن هنالك رجلان شديدان، طالب عبد الحق ونديم ضاري اللذان أحاطاه بثلاث اذرع قوية، للبث هناك حتى يقضي نحبه جوار قبرها.

وآخر ما قام به شاكر عبد المجيد وحسبه أمرا لامناص منه لكي يترك أثرا حسناً في روح زوجه، أن راح يقتطف نتفاً من العشب وإزهارا

نتأت هنا وهناك، رماها على قبرها في لهوجة سريعة كانت تعكس مدى كلفه بها من جهة واضطراره إلى ركوب العربة من جهة أخرى، موزعاً بين شيئين متنافرين كلاهما مطلوب ولا بد منه.

عند هذا وقد خيل اليه انه قام بما يجب، قبض على حفنة تراب من القبر شمها واحتفظ بها في جيبه، ودلف إلى العربة مأخوذاً بفراغ عميق ووحشة قاهرة سلبته قدرة أن يعي أين هو وما الهدف من رحلته ولماذا هو دون غيره، وهل صحيح ما حصل له، وهل يعقل ذلك؟

ارتخى على كرسيه وشئ عميق وحار ينسل من صدره له قوام المادة الصلبة، ليترك ،من بعد، فراغاً أجوف تهمد عليه القوة وتتراخى الأعصاب وتصفر في وديانه ريح، فإذا تلاشت القوة تماماً، طفح على شاشة النفس ما اسمه الخيبة، وما اسمه المرارة، وما اسمه الكذب، والضلال، والحزن، والحقيقة المراوغة، واخيرا ما اسمه السراب... سراب... كل هذا...وكاد يضحك ويمنع دموعه من أن تأخذ مجراها في انسياب حر وثر، فجسده يغرق في بحر من العرق البارد كالصقيع فاستنتج في صحوة غافية، انه الان مريض، وانه، كما في حالات سابقة، بحاجة إلى جسد سهام يلتف عليه ويحميه من أي طارئ أو عارض من هذا القبيل، بحاجة إلى يد تمسك كتفه أو تحيط عنقه مثلما كانت تفعل أمه في طفولته، أو أخوه الأكبر في صباه، أو صديقه الحميم في شبابه.

نعم انه بحاجة إلى شيء من هذا يبعد الألم والصقيع ويحيطني بدفء اليد الحانية والنفس الصادقة، ورائحة سهام وشمس المدن المفتوحة وماء النهر في الصيف، وأقاويل الجدات في الشتاءات الباردة، ولعبة العظم الضائع في الليلي المقمرة، وبسمة سهام وأريج سهام ودفء سهام... آه، وارتعشت أعضاؤه جميعها.

وكانت يد حانية أحاطت بكتفه ففتح عينيه البليلتين، فإذا هي يد طالب الرجل الذي أمسى صديقاً وأخا.

بحركة العربة نحو الامام أو نحو ما كان يراه أو يخيل اليه كذلك، اضطربت رؤى السائق وتنازعت نفسه شتى الاحتمالات، فذلك البعد الذي يسعى اليه لم يعد إلا شيئاً مجهولاً ليست له حتى الان ملامح أو شواهد تعلن عنه أو تشير اليه، إنما كغريق في ليل امست العربة تعوم في الصحراء وتطوف في الآفاق.

. أي صديقي، لاشك، أن خسارتك كبيرة
ولكن ليكن معلوماً لديك أنها جزء من هذا
الذي يحيط بنا، خسارتنا جميعاً، بل وخسارة
غيرنا كذلك، أهلنا... اخوتنا... محبينا...

. ...

. وعزاؤنا في ذلك. واعظم الرجال هو من
يجد في نفسه فسحة للعزاء، حتى يحين...

. شئ غير معقول.

أجاب شاكر عبد المجيد بانفعال مشوب بلوعة الحزن الحار... رد عبد الحق:

. هو كذلك...ولو كان معقولاً لكان حله يسيراً.

في تطواف متخبط، كانت الصحراء فيه تدور بين الأعين المسهدة، مثل بحر مضطرب الموج، ألفى السائق نفسه أمام العين كرة أخرى.

هناك أوقف عربته، وهبط نحو الأرض معترفاً في سره بان ذلك هو ما أراد أو ما ينبغي أن يقر به، إذ لا كمية الوقود المتبقية تكفي للبحث عن الطريق دون دليل، ولا العربة المفككة الاوصال، لا جسده الذي يبست مفاصله، ولا هؤلاء الذين نفرت عروقهم وغارت عيونهم واستبد بهم جنون.

على أن أحدا من هؤلاء ان لم يعرف ان كان الأمر مقصوداً أو جاء مصادفة، فلقد اعترفوا بان هذا هو المآل الذي لابد من أن ينتهي اليه كل مغامر ضال، وان نهايتهم ان كانوا كذلك، فستكون في الأقل قرب عين ماء.

عند النقطة التي توقفت على ارضها العربة، وبعيداً بعض البعد عن تلة الأعمى، قامت المواجهة مرة أخرى بين الأعمى على قمته وبين السائق في منخفض محنته التي ربما كان من جراء تأثيرها الخفي ان انتزع الساعة من يد صادق عبد الحميد وحطمها على مقدمة عربته. كانت الساعة الوحيدة التي يحملها راكب أو غيره في هذا المكان.

قال صادق عبد الحميد، الساعة الرابعة والنصف عصراً، وها أننا ندور دون جدوى... الوقت يمضي هباء، والموت يتهددنا... ثم نظر إلى ساعته ملياً.

تقدم السائق منه وفي حركة خاطفة انتزع الساعة من يده فكانت نثارا على الأرض مخاطباً إياه وقد حاذى بكتفه المستدير انفه:

. واصل غناءك... وابعثه حزيناً هذه المرة

فهنالك اكثر من سبب قادم للحزن.

أُخذ صادق عبد الحميد بما فعله الرجل، فلم يحرك ساكناً، إنما مكث معلقاً نظرة على وجهه الذي ارتسمت عليه علامات غضب مخيف، حائرا في ما يجب ان يفعل ثم ما لبث ان انسحب منعطفاً نحو أجزاء الساعة التي تناثرت على الأرض يلمها أو يعيد ترتيبها... لقد تحطمت ماكنة الساعة واختفت بين العشب أجزاء صغيرة، فضاعت إلى الأبد فرصة إعادتها إلى الحياة مرة أخرى، ففقد صادق بذلك جزءاً من كيانه، كان الوحيد الذي اصدقه الجواب على كل سؤال سأله ولم يخيب ظنه مرة واحدة.

كانت ساعته ذي من النوع الثمين الممتاز، ولقد عُني بها عناية فائقة جعلتها تقاوم، من دون زيادة او نقصان، مجرى عشر سنوات، وهي ذاتها، في العلامة وشركة الصنع، ساعة صديقه الذي سقط في المعركة وظلت تنبض على يده كما لو لتعلن عن حياته أو لتتحدى الموت بعد

مماتـه، وكـان نزعها عن يده واحتفظ بها لذويـه الذين علقوها علـى أحد جدران غرفته ومضوا يتابعونها ويعنون بها.

كرّ صادق عبد الحميد راجعاً إلى حيث تجمع الركاب في حشد غاضب، حوّل شعلته الملتهبة ولو إلى حين صوت سوسن نوري يولول شـاكياً ألمـا حـاداً فـي المعـدة افتـرض المضـمد عبـد الجبـار أن مصـدره الجوع.

اثر ذلك هب عدد من الركاب إلى جوف العربـة يمدون أيديهم إلــى المـرأة بمـا تنــاقلوه مـن حقـائبهم وكـان احمـد نجـم قـد غـض بصـره حياءً إذ وجد نفسه غافلاً عن احتمالات سفر بعيد كالسفر إلـى ((سرمارا)). هكذا انفثأ الغضب السريع الذي انتفخ قبل لحظات، او هكذا عاد الجميع إلـى السؤال الأعظم، كيف يمكن الخلاص من هذه المتاهة والنفاذ إلى طريق الأمان؟

منذ أن ارتقى العربـة حتـى قبيل تحطم ساعته، كان صادق عبد الحميد يمني نفسه بالوصول إلى سرمارا التي كان يدعوها، بيت الامـان، مبتعـداً عـن الكثيـر ممـا اعتـرض طريـق العربـة والركـاب، مـن محـن او عقبات...

أمـا الان وقـد وجـد نفسـه بـلا سـاعة تقبض علـى رسـغه قبضـة الصـديق الأليـف، وذوى فــي نفسـه ذلـك الإحسـاس الجميـل بالشــيء الخـاص أو الشـيء النـادر الأصيل، فلقد اصبح اكثر الركاب رغبـة فـي الاقتصاص من السائق. ولعل من المحزن لصادق عبد الحميد ان يكون

تحطيم ساعته إيذانا بانعدام الشعور بالدقائق التي كانت تمضي تحت عينيه والزمن الذي يسيل، في يمّ صحراوي اصبح ضياع العمر فيه قاب قوسين.

عندما رفع طالب عبد الحق يده عن كتف شاكر عبد المجيد، بعد أن حاول مواساته، اعترف شاكر عبد المجيد لنفسه، بان ما حصل له وان كان أمرا خاصاً وخاصاً جداً، وانه هو الذي تلقى فجيعته وخسارته، فانه في الوقت ذاته، الشيء الذي اشترك فيه الجميع، فتجسدت أمامه تلك القيمة الممتازة التي كانت لزوجه عند هؤلاء والتي كان يشعر انه وحده الذي اختُص بها أو خصها به.

بهذا ارتفع شعوره بالاعتبار، واعتبر أن هذا هو ماقد يكافأ به قليل من الناس حينما تختطف الأقدار شخصاً عزيزاً عليهم وجديراً بالتقدير.

واذا كان ثمة من ثقل محبب حط على كتفه، ولا يزال يستشعره بارتياح فانه الثقل الذي حطت به ذراع طالب عبد الحق، الذي لم يكن ليولد هذا الاحساس الذي يعيد الامل في الاشياء لولا كلماته المحببة التي رافقت الذراع حاملة مع عذوبتها ظلال المشاركة الصادقة والتأسي الحميم. من هنا استمد شاكر عبد المجيد حرارة خطواته نحو صادق عبد الحميد الذي استقبله بود وعبر عن أن تحطم ساعته: إنما هو رد فعل تلقائي يحدث عند العديد من الناس من أصحاب الانفعال غير المنضبط وهذا الرجل من أولئك... ثم لماذا الساعة... وهي لا تفعل شيئاً سوى أن

تشير إلى زمن؟ ... كانت هدية... رافقتني الدراسة الجامعية... ملذتي الوحيدة.

. يؤسفني أن الأمر حدث معك.

قال شاكر عبد المجيد.

. لا تحزن... الموضوع لا يعدو

أن يكون خسارة صغيرة.

رد بذلك مواسياً محدثه الذي كانت خسارته افدح الخسائر بعد خسارة الجميع في الأعمى.

. حقاً كذلك...

أجاب هذا وقد أدرك مرماه، ثم ربت على كتفه يدعوه الى تجوال قصير.

كان بوده أن يتحدث منفرداً ولوهمساً عن خسارته العظيمة فيها...ان يقص عليه كيف تعرف اليها في دائرة تضج بالنساء، كيف فاجأها بحبه وهو الرجل الوجل الخجول، كيف استجابت له وتزوجها... لكن صادق عبد الحميد الذي تفجرت في أعماقه أصداء أغان قديمة مجهولة، لم يمهله طويلاً، إذ أعلن عن تذكر أمه وأبيه.

. ترى، من يعلم ما الذي يفعله الساعة أهلوه؟

آه... لو أن طائراً حط، أو ريحاً مسخرة أتت.

. نعم... ما الذي يا ترى يفعله أهلنا هنالك،

ما الذي يفكرون فيه؟

أردف في ارتداد ذهني سريع انصب على التي خلفها قريباً منه، فما الذي تصنعه الان، ما الذي يحيط بها أو يجري لها هي الوحيدة على ارض فلاة.

قريباً منهما كان يسير طالب عبد الحق وأحمد نجم وسوسن نوري... سوسن نوري تبتعد عنهما قليلاً كمن يفتش في الأرض عن شئ ما، متخلفة عنهما ومنشغلة كذلك أو هكذا يبدو، فيما انصرف الاثنان إلى حديث مشترك:

. أيها الصديق... نحن نموت... نفد ما
عندنا من طعام. وها هو ما عند الجميع
ينفد كذلك، وان لم يكن في هذا موتنا فهناك
الضواري والوحوش حين لا تكون لدينا
القدرة على دفع الشر ورد الأذى.

رد طالب عبد الحق:

. اعلم هذا...

أطبق شفتيه، أجال بصره الحاد في الأفق المترامي، بعيداً عما كان ينبسط أمامه على الأرض من ظلال بدأت تلقيها رحلة الشمس نحو الغرب، فان لم يجد منفذاً وكل ما حوله مطبق إطباقه صمت سرمدي كرر جملته:

. اعلم هذا.

وبدأ يشعر بدوار يلف رأسه.

كان ذلك عند حلول المساء وفي اللحظة التي ذعر فيها السائق عندما شاهد بام عينيه نقطتي نور خضراوين تومضان في فضاء التلة التي دفن على قمتها الأعمى.

فيما كان الركاب يجتمعون تجمعاتهم الصغيرة اخترق صفوفهم مساعد السائق يحك يدا بيد يستصرخهم دواء ناجعاً ويتقدم بعض التقدم نحو التلة ليحدد ولو من بعيد موقع النقطتين منها او عليها.

إنهما فوقها تماماً... بل ينبثقان من أعلاها في خيط شعاعي واه ثم ما يلبثان ان يتأججا في الأعلى على هيئة نجمتين او شئ من ذلك.

عند هذه الحدود تراجع الرجل... لم يتقدم إذ اعترته رهبة أشاعت في جسده قشعريرة الحمى فآل على نفسه ألا يتمادى كثيراً لئلا يلم به نوع من فقدان العقل.

فلقد همدت فجأة الحكة التي كانت سعرت جسده وذراعيه، واستولى عليه شعور جارف بان ما يحدث الان شئ لا طاقة له على تفسيره، وان ما يعذبه ويكوي جوانحه هو هذا الصراخ العظيم الذي ينطلق من أقاصيه... صراخ أمه يوم مات أبوه، صراخها يوم عاد بشهادة علمتها الخطوط الحمر، وصراخه الكظيم ليلة عاد اليه الأعمى يربت على كتفيه.

عاد أدراجه، وعلى خطواته التي تجلى عليها الارتباك استشعر السائق حقيقة ما سوف يفوه به، او يعلن عنه.

. نعم... عندها تماماً ومن قمتها بالضبط.

. ما هذا؟ ماذا ترى؟

. شيء لا يصدق... اتركني لشأني.. شيء يذهب بالعقل.

من مواقعهم تبادل الآخرون النظر في ما عسى أن يكون النور المنبعث من فوق التلة على هيئة كرتين صغيرتين مشعتين، عندئذ اتفق الجميع ومن جاء بعدهم وسمع القصة، على انهما عينا الأعمى، وقد استعادتا نورهما، ترقبان الطريق.

من بين موجات اختلاط شديد يؤججه هذا الفراغ المدلهم الذي يحيط به، تعاوده الصورة البعيدة ذاتها، المراة الغريبة باهابها الهلامي مظللة بألوان شتى يغلب عليها اللون الرمادي الباهت، وتفزعه النجمتان المشعتان من قلب التلة، من عمقها، من قمتها.. ولولا عناد وعنت فطرت نفسه عليهما لتشبث بمن حوله، او صرخ باعلى صوته، او اطلق ساقيه الى مجاهل البرية لايلوي على شيء.. هناك لتلتف عليه الافاعي او لتأكله الذئاب..

أحمد نجم

بعد تجوال مضطرب قصير، اختمرت فكرته الأخيرة فيه، عاد السائق إلى مكانه الذي لم يكن ابتعد عنه، وأفضى لصاحبه:

. غداً صباحاً.. تبكر للبحث إلى الطريق العام.. تأخذ معك الصامت في لسانه، المتكلم في قلبه، الملتحي لحية البدو ذاك.

رمى باشارته ناحية الراوي الذي كان معتكفاً في مكانه يراقب بعينين بلوريتين كل ما يجري امامه.

تقدم الرجل نحوه شاقاً مع ظلمة الليل دائرة الركاب الذين ركنوا للراحة أو مالوا البالنوم وجلس قبالته..قدم له سيجارة اعتذرعن تناولها، وقال:

. أيها الأخ.. إعذرني.. فغداً صباحاً نبكر، انا وانت، للبحث عن الطريق العام، ولقد اخترناك لسلامتك الجسدية ولما تكون عليه او يبدو عليك من معرفة بالصحراء.

أجاب، وقد غدا، حال أي راكب آخر، ملماً بالكارثة التي حلت او التي ستحل:

. أيها الرجل.. لقد ضللتم الناس.. وها انت أخيراً تستعين بي.. لقد قتلتم الأعمى، وماتت سهام حامد من غير دواء، وها أن الآخرين يموتون حزناً وجوعاً وعذاباً .. ثم ما انا الاّ تاجر تمر وتبغ

أعرف طريقاً واحداً الى مساكن البدو ضللتموني

النقطة الدالة عليه.

قال، وقد اخذه الكلام الذي فاجأه به والضعف الذي استولى فجأة عليه:

. أيها الأخ.. لاتكثر من اللوم.. لابديل عن ذلك

ولا سبيل الى سواك.

لحظة قصيرة، غلب على الاثنين صمت ممض كان سعال صادق عبد الحميد الدامي يضفي عليه مرارة ثقيلة.. سأل:

. وأية جدوى في ذلك؟

أُخذ الرجل بلسعات ذراعيه تنشأ من جديد حارة و مؤلمة، وبدويّ يجتاح رأسه فيسمع له صوت في اذنيه.. وإمتد به الصمت.

في لهجة آثر ان تكون اكثر حكمة وأصدق نصحاً، أردف:

. ثم أتعرف ما معنى الصحراء.. وما معنى

ان تطوف فيها وعظامك مكسوة بلحم ودم؟

رفع الرجل رأسه.. ثبت عينيه على الهيئة التي كانت لا تزال نظيفة لامعة. رد مغلوباً على امره ومحاصراً مما يعصف بنفسه وجسده:

. أعرف ذلك.. ولكن ليس في اليد حيلة.

وأضاف مستسلماً لما بدا انه حقيقة قاهرة:

. والموت هنا، الموت نفسه هناك.

. او تدرك الحيرة والهلع اللذين

يأخذان بخناق الركاب؟

تصاعدت انات صادق عبد الحميد.. وتواصل سعاله في دفقات عنيفة كان صدره يتفجر عليها، وحواليه تجمع بعض الركاب متأسين وناقمين.

. على اية حال، غداً سيكون لنا شوط آخر في الصحراء.. ربما نفذنا من خلال قوس المنعطف نحو الطريق الذي نبحث عنه، ومن نقطة قد تكون بين اقدامنا ولا ندري؟

التفت نحو السائق، فرأى شبحه المتطاول يذوب في كثافة العتمة، وقد اخذه هيمان منذ ان رأى النجمتين المشعتين.

. وإن لم نعثر عليه؟ هناك اذن سنكون طعماً للضواري والوحوش؟

صمت ولم يجب فتابع:

. وما ضمان عودتنا، إن عثرنا عليه؟

. اترك الموضوع لي.. وكما ترى فالامر صار يستدعي المغامرة.

. حسن، لك ذلك.. ولكن من اجل هؤلاء.

وحتى الصباح الباكر الذي اتفقا على الخوض فيه، في صحراء مترامية لا يحف بها سوى أطياف قصيّة اسمها الآفاق، اطبق على

الكون ليل بهيم، شف في نقطة منه عن مصباحين يشاركان مصابيح السماء النائية إطلالة العيون الصامتة.

*** *** ***

عقب ساعة او يزيد من تريث في الحديث بعد إذ رأى زحام المتحدثين، اردف البدوي.. قال:

البدوي

كانت عين الماء التي وصفها الراوي على مبعدة ساعات منا على ظهر جواد يسابق الريح.. ولقد هرعت وجماعة من

قومي للوصول الى المكان في وقت يسمح بمعاينة احوال الركاب ونجدتهم قبل فوات الاوان.

مع اول إرتفاع شمس الضحى نحو قمة السماء حللنا عند التلة التي اسماها الركاب أنفسهم ب"تلة الأعمى".

هناك، وعند سفحها تمددت جثة أحاطت بها الدماء، عرفوني عليها على انها جثة السائق.. كانت منتفخة مضى على موتها ثلاثة أيام وقد نهشتها ثعالب او ضباع.

عند المسافة بين التلة وعين الماء، ارتمى على ظهره الشاب المهندس، مقطوع الساق والذراع بعد ان سكن قلبه فجأة أثر مقتل السائق وانقطاع أخبار مساعده، ثم استحالة تحقق حلمه في الوصول الى ((سرمارا)) وعودة جسده اليه.

ولئن بقيت سوسن نوري على قيد الحياة بعد ان المّ بها ما الم في البطن ووهن في الأعضاء، فلقد كانت قاب قوسين او أدنى من الموت، ولولا مبادرة زوجها الى الاستيلاء على حقيبة المهندس والاستحواذ على ما فيها من طعام لكانت في عداد الموتى قبل وصولنا بيوم او يومين. ولعل احداً من الركاب جميعاً، لم يبق محتفظاً بقوته أو بعض قوته، غير طالب عبد الحق ونديم ضاري الذي ظل طاوياً حزامه على بطنه مشحوناً بالغضب وملتحفاً الصمت.. لقد راعني تدفق نفسه واشتداد عوده ونفاذ عينيه، وعمقهما الغريب، ولولا انه من أهل الحاضرة لقلت أنه بدوي من عمق الصحراء عاد تواً من مطاردة وحش.

ولربما كان موت صادق عبد الحميد الذي ذوى عوده ساعة بعد ساعة بعد ان اوهنه نزف شديد، صدمة الجميع حينما لفظ أنفاسه على ذيول آخر اغنياته التي تشربت بدم صدره العليل..

وما كان شاكر عبد المجيد اكثر المتأسين عليه وقد أفاض بحديثه معي قبل ان يموت بين ظهرانينا موتة الغريب إلاّ لأنه التحم معه في الشجن العميق منذ ان كفت سهام حامد عن الحياة.

و ان كنت عثرت على الراوي هائماً في الصحراء، وقد فقد أي دليل على طريق أي طريق، فلقد ضاع، وكما يبدو، الى الأبد مساعد السائق الذي ظهر بلا اسم يعرفه به احد..

واذا كانت الصحراء درب هلاك فقد تكون في لحظات انفراج مفاجيء درب نجاة.

ومن يدري ما عسى ان يكون حل به تحت ظفر او ناب او على ظهر جواد عبر فارسه به تخوم الصحراء.

دفنا من مات وحملنا من بقي يصارع الموت ريثما نعيد له شيئاً من حياة..

تم دفن السائق تحت قاعدة التل الذي دفن على قمته الاعمى.

وعلى القمة ذاتها وجوار الأعمى دفنا المغني صادق عبد الحميد، واما المهندس الشاب فلقد اخترنا له رابية صغيرة دفناه على قمتها ايضاً.

وآخر ما فاه به شاكر عبد الحميد قبل ان يلفظ انفاسه في ربوعنا.. قال:

شاكر عبد المجيد

كنت اراقب السائق لأرى بام عيني كيف كان ينوء بثقل وحدته ويطوي، صامتاً، عذاباته.. كيف بدأت عملية الاقتصاص لحظة اثر لحظة في خوف قاهر وعذاب متصل، حتى اذا كانت ساعة مدلهمة من

ليلة اشتد فيها يأسه وانقطع في رسوليه امله، طفحت العينان اللامعتان تومضان من عليائهما كما لو انهما تومئان.

لقد اضناه النظر الى هاتين العينين المتوهجتين بحسب كثافة واشتداد ظلمة الليل.

ونجاةً مما يحيط به ويطبق طوقه على خناقه، اعطى ظهره للنوم ومضى يقطع طريقه هذه المرة نحو تلة الأعمى بعيداً عن كل ما حوله تاركاً الركاب يغطون في نوم المستسلم المغلوب، ليمسك ولو بطرف من هذا الذي يقلق راحته، بعد ان افلت من يديه زمام الامساك بصور مثيرة كانت كل مرة تزدري به وتقتلع أمنه.

في هذه الساعة من الليل الذي استجمع فيها كل قواه ليعرف منْ هذا الذي يبزغ فوق رأسه، كما لو انه شاهد يشير الى جريمته ويعريه، التمع نصل مرهف متربص، ومر على رقبة غليظة عجماء، أمست في لحظة خاطفة جزءاً من صمت الكون، بعد أن شخب منها دم مدرار سال على مجرى دم لم يكن جف تماماً بعد. فاذا بكرت سوسن نوري صباح اليوم التالي، يرافقها مرافقة حيية زوجها، الى الخلاء ذعرت من مجرى الدم وتوقفت عند حدوده السفلى، وقد سال متحدراً من خلف تلة الأعمى. من هناك.. ومن مكانها الذي ذعرت فيه وأطلقت منه صرخة مدوية كتمت ذيولها كف زوجها التي أحاطت بفمها، سمع الركاب صرخة الذعر ذاتها التي أطلقتها زوجتي سهام حامد صبيحة رأت دم الأعمى ملتمعاً في مجراه.

***   ***   ***

تابع البدوي:

لقد رأت الصحراء غير مرة، عربات مثل هذه تضل طريقها فأحكمت عليها قبضتها وتركتها نهباً للضلال والوحوش.

بيد انها هذه المرة لم تكن كذلك، إذ ألقت بها قرب عين ماء، وهتف بي هاتفها أن أجوبها، بحثاً عن تائه او ضال.

ذلك أن في هذه القافلة، وكما يبدو، من الرجال مَن لا يستحق الموت.

813/92
ح 999 **حنون مجيد**
المنعطف: رواية/ حنون مجيد
بغداد: مكتب الدرة، 2001
ص؛ 23 سم.
1– القصص العربية – العراق
أ – العنوان
م.و
2001 /589

المكتبة الوطنية (الفهرسة اثناء النشر)
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 589
لسنة 2001